أُسس قوام الشخصية الفاعلة

كتبها

الشيخ عمر بن محمود أبو عمر

أبو قتادة الفلسطيني

حفظه الله تعالى

النور للإعلام الإسلامي

أُسس قوام الشخصية الفاعلة

شرح سورة الشرح

t y

١٤٣٣ – ٢٠١٢م

 :

النور للإعلام الإسلامي

AL NUR ISLAMIC INFORMATION

Vesterbrogade 208 Box: 276 – 1800 Frederiksberg C. Denmark
Phone: (45) 2077 4828. E-mail: alnur1@hotmail.com



فحسبنا الله ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوة إلاَّ بالله العلي العظيم، وبالجملة فالسلامة من الخطر، أمرٌ يعِزُّ على البشر، فسترَ الله على من ستر وغفرَ لمن غفر:

فَـانْظُرْ إِلَيْهَـا نَظَـرَ الْمُسْتَحْسِـنِ ... وَأَحْسِـنِ الظَّـنَّ بِهَـا وحَسِّـنِ

وَإِنْ تَجِـدْ عَيْبـاً فَسُـدَّ الخَلَـلا ... فَجَـلَّ مَـنْ لاَ فِيـهِ عَيـبٌ وَعَـلا

وَالحَمْـدُ للهِ عَلَـى مَـا أَوْلَـى ... فَـنِعْمَ مَـا أَوْلَـى وَنِعْـمَ المَـوْلَى

ثُـمَّ الصَّـلاةُ بَعْـدَ حَمْـدِ الصَّـمَدِ ... عَلَـى النَّبِـيِّ الْمُصْـطَفَى مُحمَّـدِ

وَءَالِـهِ الأَفَاضِـلِ الأَخْيَـارِ ... مَـا انْسَلَـخَ اللَّيْـلُ مِـنَ النَّهَـارِ[1]

[1] الأبيات من «مُلحة الإعراب» للقاسم بن علي بن محمد بن عثمان، أبي محمد الحريري البصري (٤٤٦-٥١٦هـ/١٠٥٤-١١٢٢ م).



بسم الله الرحمن الرحيم

وبه أستعين

الحمد لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على محمد الأمين وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:ـ

فإنَّ الرقي الإنساني نموذجه التامّ والكامل هو رسول الله ﷺ، وقد دبَّر الله لرسوله ﷺ من القضاء الكوني في الأحداث والاختيارات أحبَّ الأمور إليه سبحانه وتعالى، وهو مع ذلك كلِّه لم يخرج من الإطار الإنساني المحكوم بسنن الوجود والحياة، فشخصيته النَّبويَّة جامعة لاختيار الإنسان المريد والمفعَّل بالحبِّ والكُره والرضا والغضب والعفو والعقوبة مع مُراد الله بالحبِّ والرضا، وللوصول إلى هذا المُرتقى الإنساني الجامع لإرادة العبد في الاختيار مع إرادة الله تعالى بالحبِّ والقبول لا بدَّ من تحقيق مطلبٍ مهمٍ؛ وهو أن تُعدَّ هذه الشخصية من خلال إرادتها على نحوٍ من النَّوع المُلائم لهذا، هذا النَّوع هو تجريد الفِطرة الإنسانيَّة من علائق التغيُّر لتعود إلى سَوِيِّتها الأُولى من التمام والسلامة، ورسول الله ﷺ إنسانٌ مريدٌ، وكل مريدٍ له اختياراته، والإنسان صناعة بيئته الطارئة على فِطرته السويَّة السليمة، وبطروئها يحصل التغيير والتبديل والنقص، ولحمل الإنسان إرادته على مُراد الله ليحصل التوافق الذي يحقق نموذج الرقي الإنساني لا بدَّ من إصلاح هذا الطروء للعودة إلى سواء الفِطرة.

هذه عمليَّة صقلٍ وإعدادٍ، والعابد والداعي والمجاهد والعالم هم وُرَّاث هذا النموذج التامِّ والكامل، وهؤلاء مع إرادتهم ومشيئتهم في تحقيق الحبِّ والرضى الإلهيين إلاَّ أنَّ دخولهم لهذه المراتب لا يكون إلا بالاصطفاء، وهؤلاء هم وُرَّاث النُّبوَّة، ففي كلِّ واحدٍ منهم قبسٌ من نورها، ومعنىً من معانيها، تجري في

صدورهم المعاني والإرادات من نهر النُّبوة العظيم، ومن جوامع هذه المعاني أنهم أهل اصطفاء كما قال تعالى: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ ﴾ [فاطر: ٣٢]. وهذه الآية من سورة «فاطر»، وهي سورة موضوعها التنوُّع؛ تنوُّع الخلق وتنوُّع الاصطفاء كذلك، ومن أنواع الاصطفاء أن تتوزع أعمال النُّبوَّة سوى الوحي الكامل على عباده الصالحين، وقد قلتُ: «الوحي الكامل» لحديث النَّبيِّ ﷺ: «ذَهَبَت النُّبْوَّةِ، وَبَقِيَت المُبَشِّرَاتُ»[١]. ولأنَّ الرؤيا جزءٌ من النُّبوَّة كما في الحديث.

هذا الاصطفاء هو منَّةٌ إلهيَّةٌ، وهي نعمةٌ كَكُلِّ نِعَمِ الله تعالى على عبيده تُوجب الملاحظة والإدراك ثم الشكر، والنعم لا يُؤدي العبد شُكرها حتى يُدرك معانيها ويشعر بها ويعرف قيمتها، وهذا الإدراك ليس هو الغرور ولا الإدعاء، وهو لا يختلف في نوعه عن إدراك المرء لنعمة المال والصحة وغيرهما من النعم الماديَّة المحسوسة، وككلِّ النعم التي يُدركها المرء على معنى صحيح فإنَّها تؤدي إلى التواضع وطلب الإخبات بالشكر والدعاء.

في سورة«الشرح» حديثٌ جامعٌ لهذا الاصطفاء وتنوُّعه، وقد قسَّمت السورة الاصطفاء إلى نوعين؛ نوع إزالة لعلائق السلوك الإنساني في مسيرته وحياته، ونوع زيادة لحصول الفرادة للدَّاعي والعامل لدين الله تعالى كما سيأتي إن شاء الله تعالى.

ومع هذا الاصطفاء إرشاد إلى أنَّ المصطفى هو إنسان تجري عليه سنن البشر وتقلبات الدهر وأحداثه، لكن لهذا المصطفى خصوصيَّة العاقبة التي يفترق بها

---

[١] «المُسند»: ٥٢٦/٧/ح٢٦٧٣٥. «سنن الدارمي»: ١٢٣/٢/ح٢١٣٩. «صحيح ابن حبان»: ٤٥٧/٥/ح٥٩٤٥. «سنن ابن ماجه»: ١٢٨٣/٢/ح٣٩٨٠. «مجمع الزوائد ومنبع الفوائد»: ٣٦١/٧/ح١١٧٢١. عنْ أُمّ كُرْزٍ الكعبيةِ رضي الله عنها.

عن غيره من المحرومين، كما أن هذا الاصطفاء لا يعفي المصطفى من سلوك الثبات على الطريق واستمراره عليها، إذ بالدوام يكون ثبات الاصطفاء، وارتفاع إرادة التعبُّد يعني حرمان صاحبها من هذا الاصطفاء.

لهذه السورة معنى خاص في حياة المؤمن، وآيتها: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦﴾ [الشرح: ٥ ـ ٦]. شعارهم الذي يتزوَّدون به في رحلتهم إلى اليقين، وهي في أُفق حروفها ومطلع تساؤلها داعية غناء وترنم في الخلوة والسرى، فهي غناء للروح والنفس، وغناء للسان والسمع، وهذا مع عظمته فإنَّ المؤمن لا ينبغي له في أثناء دخوله في هذا النُّور أن يغفل عن بيئة هذا النُّور والوعد، وهو نفسه وإرادته وسلوكه، وهذه هي معاني الاصطفاء، فإنَّ القرآن لا يعطي الوعد إلاَّ بالحقِّ، وقد فسَّر هذا رسول الله ﷺ بقوله عن سورة «الفاتحة» في الحديث القدسي: «قَسَمْتُ الصَّلاَةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي»[١]. فإنَّ العطاء لا يكون إلا بالتأهل، وفساد الوعاء مفسد لما بداخله، وفي الحديث عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «بَيْنَمَا جِبْرِيلُ قَاعِدٌ عِنْدَ النَّبِيِّ. سَمِعَ نَقِيضاً مِنْ فَوْقِهِ. فَرَفَعَ رَأْسَهُ. فَقَالَ: هذَا بَابٌ مِنَ السَّمَاءِ فُتِحَ الْيَوْمَ. لَمْ يُفْتَحْ قَطُّ إِلاَّ الْيَوْمَ. فَنَزَلَ مِنْهُ مَلَكٌ. فَقَالَ: هذَا مَلَكٌ نَزَلَ إِلَى الأَرْضِ. لَمْ يَنْزِلْ قَطُّ إِلاَّ الْيَوْمَ. فَسَلَّمَ وَقَالَ: أَبْشِرْ بِنُورَيْنِ أُوتِيتَهُمَا لَمْ يُؤْتَهُمَا نَبِيٌّ قَبْلَكَ. فَاتِحَةِ الْكِتَابِ وَخَوَاتِيمُ سُورَةِ الْبَقَرَةِ. لَنْ تَقْرَأَ بِحَرْفٍ مِنْهُمَا إِلاَّ أُعْطِيتَهُ»، ومن تأمل السورة والخواتيم رأى أنهما لا يشتملان على عطاء ومِنن فقط، بل فيهما أمرٌ وتكليفٌ، ففي الخواتيم قوله تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾...إلى قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ۝٢٨٥﴾ [البقرة: ٢٨٥]، كما أنَّ في السورة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة: ٥].

---

[١] «صحيح مسلم»: ٤/٨٥/ح٨٢٩، ٤/٨٦/ح٨٣١.

فهذه السورة تُبيِّنُ الإعداد الربَّاني للعامل لدين الله تعالى من أجل حمل المهمَّة الثقيلة كما قال تعالى: ﴿ **إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا** ﴿٥﴾ ﴾ [المزمل: ٥]، ومن خلال هذا البيَّان تُعَلِّم حملة القرآن موانع أداء الرسالة وبلوغ المراد، كما أنها ترسم مسيرة الإنسان وتقلبه في ظروفه وأحواله مع تميز حال المؤمن القدري في نوع إرادة الله فيه، كما فيها شأن المؤمن الوارث في ثباته وديمومة العمل الصالح حتى اليقين.

هي سورة من ثمان آيات، كلُّ آية تمثل جملة واحدة، ككلِّ سمات السور المكيَّة التي تجري هذا المجرى من القذف السريع الثقيل المُتواصل، إذ تصل إلى المُراد على نوعٍ من الخطف الذي يشدُّ السمع ويقرعه، ويُنبِّه القلب ويثوِّره، فلا تكاد تبدأ السورة حتى تنتهي، فتملأ وتُغْني، لغزارة المعاني الكامنة في اللفظ الواحد الجامع، وهي سورة تجتمع مع سور مكية أُخرى كـ«الأعلى» و«الغاشية»، و«**ألم تر**»، و«**أرأيتَ**»، وقبلهن نزولاً أول آية نزلت ﴿ **ٱقْرَأْ** ﴾ [العلق: ١] تخاطب رسول الله ﷺ، مع فرادتها حين تكون السورة عدّاً للنعم الإلهيَّة التي أسبغها الله على هذا الإنسان المصطفى «بأبي هو وأمي»؛ أي شخص رسول الله ﷺ.

وهي السورة التي تلي سورة «الضحى»، وفيها ذكر النعم الاجتماعيَّة والاقتصاديَّة وذكر بينهما نعمة الهداية والإيمان التي أسبغت على رسول الله ﷺ، وذلك في قوله تعالى: ﴿ **أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ** ﴿٦﴾ **وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ** ﴿٧﴾ **وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ** ﴿٨﴾ ﴾ [الضحى: ٦ ـ ٨]. وختمت سورة «الضحى» بقوله تعالى: ﴿ **وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ** ﴿١١﴾ ﴾ [الضحى: ١١]، ومع أنَّ سورة «الضحى» فيها ذكر النعم التي أمر رسول ﷺ بالإخبار عنها إلاَّ أنَّ سورة «الشرح» فيها كذلك الجواب عن سؤال السائل لو سأل: ما هي النعم التي يخبر بها الله تعالى خلقه! إذ فيها الجواب: ﴿ **أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ** ﴿١﴾ ﴾... السورة.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾﴾ [الشرح: ١].

بهذا المطلع من السؤال التقريري المُلقى على قلب رسول الله ﷺ تبدأ هذه السورة، وكأن قبلها حوار قائم أو تساؤل في النفس فيهما حاجة لهذا التذكير من النعم، أو كأنَّه تساؤل يقدم الأرضيَّة التي تحقق الدفع لواجب يتلاءم مع هذه النعم التي يستحقها هذا الواجب، ولمعرفة هذين الأمرين فإن ما يحققها هو معرفة حال رسول الله ﷺ في هذه الفترة التي يحياها في مكَّة، وهي مرحلة كان فيها طوفان سؤالات ومشاعر وأحوال تحياها هذه النفس التي فُوجئت بهذا الطارئ عليها من الوحي والنُّبوَّة.

بمراجعة سيرة الرسول ﷺ وأحواله عند طروء الوحي والنُّبوة نجد أن ما يشغل نفس النَّبي ﷺ هو هذه النُّبوَّة التي فُوجئت نفسه بها، ولم يكن له ﷺ اطلاع على معارفها أو معانيها من قبل أبداً والأمر كما قال تعالى في سورة «القصص»: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ [القصص: ٨٦]، فليس هناك أي وعي لهذه النفس الشريفة أنَّها تعد لهذا الأمر أو لغير ذلك، ولا هي لها خبرة بتاريخ النُّبوَّة وأحوالها، ولذلك لمّا حصل له الوحي في غار حراء وقع له ما جاء في الحديث التالي من قول الصدِّيقة عائشة رضي الله عنها: «كَانَ أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ الرُّؤْيَا الصَّادِقَةُ فِي النَّوْمِ، فَكَانَ لاَ يَرَى رُؤْيَا إِلاَّ جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ، ثُمَّ حُبِّبَ إِلَيْهِ الْخَلاَءُ فَكَانَ يَلْحَقُ بِغَارِ حِرَاءٍ فَيَتَحَنَّثُ فِيهِ - قَالَ وَالتَّحَنُّثُ التَّعَبُّدُ - اللَّيَالِيَ ذَوَاتِ الْعَدَدِ قَبْلَ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى أَهْلِهِ، وَيَتَزَوَّدُ لِذَلِكَ، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى خَدِيجَةَ فَيَتَزَوَّدُ بِمِثْلِهَا، حَتَّى فَجِئَهُ الْحَقُّ وَهْوَ فِي غَارِ حِرَاءٍ فَجَاءَهُ الْمَلَكُ فَقَالَ اقْرَأْ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ «مَا أَنَا بِقَارِئٍ». قَالَ «فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي حَتَّى بَلَغَ مِنِّى الْجُهْدُ ثُمَّ أَرْسَلَنِي. فَقَالَ اقْرَأْ. قُلْتُ مَا أَنَا بِقَارِئٍ. فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّانِيَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّى الْجُهْدُ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي. فَقَالَ اقْرَأْ. قُلْتُ مَا أَنَا بِقَارِئٍ. فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّالِثَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّى الْجُهْدُ ثُمَّ أَرْسَلَنِي. فَقَالَ: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ

مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ ﴾». الآيَاتِ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ ﴾. فَرَجَعَ بِهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ تَرْجُفُ بَوَادِرُهُ حَتَّى دَخَلَ عَلَى خَدِيجَةَ فَقَالَ «زَمِّلُونِى زَمِّلُونِي». فَزَمَّلُوهُ حَتَّى ذَهَبَ عَنْهُ الرَّوْعُ قَالَ لِخَدِيجَةَ: «أَيْ خَدِيجَةُ مَا لِي، لَقَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي»[1].

ثم إنَّ سيرة الرسل ومنهم رسول الله ﷺ حين مجيء النُّبوة والرسالة أن تبدأ النفس باستشعار عظمة المهمَّة المُلقى على كاهلها، فهذا موسى عليه السلام حين أمر بالذهاب إلى فرعون وتبليغه الرسالة يقول لربِّه: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَـٰرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ ﴾ [الشعراء: ١٢- ١٤]، وكذلك وقع لرسول الله ﷺ لما عَلِمَ أنَّ قومه سيُخرجونه من مكَّة كما أخبره الرجل الصالح ورقة بن نوفل فقال ﷺ: «أوَ مُخْرِجِيَّ هُمْ؟!»[2].

ومن المعلوم أنَّ المهمات العظيمة والأسئلة الثقيلة المُفاجئة تلقي على النفس ظلال التعب والضيق، وتملأ جوانح النفس بالهمِّ والاضطراب ولذلك فإنَّ مجيءٍ الاطمئنان والعلم يحقق انشراح النفس وانبساطها، وهي حالة تؤدي إلى وعيٍ تام وفهمٍ مستقرٍ، وهو فرح الإيمان والعلم كما قال تعالى في سورة «يونس»: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ [يونس: ٥٧ ـ ٥٨]. فهذا هو الفرح الوحيد الممدوح في القرآن وهو فرح المؤمنين بالعلم والاطمئنان كما قال تعالى: ﴿مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ ﴾، وأمَّا فرح غيرهم فمذموم، بل هو سبب عذاب الله تعالى عليهم يوم القيامة كما قال تعالى سبحانه في «غافر» مُبيِّناً سبب العذاب عليهم قوله: ﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾ [غافر:

[1] «صحيح البخاري»: ٤/١٨٩٤/ح٤٩٥٣، ٦/٢٥٦١/ح٦٩٨٢.

[2] «صحيح البخاري»: ١/٤/ح٣. «صحيح مسلم»: ٢/١٦١/ح٣٥٨.

٧٥]. وقد بيَّن الله سبحانه وتعالى في ختام هذه السورة الفرح الباطل بقوله: ﴿ فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ ﴾ [غافر: ٨٣]. وهو الفرح بالباطل.

هذا هو شرح الصدر مع حال النُّبوَّة، حيث يحصل الاطمئنان والعلم، وقد جاء في القرآن بيان الحال المُخالف لذلك؛ أي ضيق الصدر والحِيرة، وهو يحصل أعظم ما يكون بالشرك، لأنَّ الشرك في بعض وجوهه حيرة كما قال تعالى في سورة «الحج»: ﴿ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيۡرَ مُشۡرِكِينَ بِهِۦۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٖ سَحِيقٖ ٣١ ﴾ [الحج: ٣١]، فالشرك إمَّا أن يكون بالحيرة والاضطراب فمثله في هذه الآية في قوله تعالى: ﴿ فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ ﴾ ومن كان هذا حاله فهو غير مستقر على حال أبداً، وإمَّا أن يستقر في ظلمة الشرك على حال واحد منه ومثله فيها في قوله تعالى: ﴿ أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٖ سَحِيقٖ ٣١ ﴾ وفي سورة «الأنعام» قال تعالى: ﴿ قُلۡ أَنَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعۡقَابِنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِي ٱسۡتَهۡوَتۡهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِي ٱلۡأَرۡضِ حَيۡرَانَ لَهُۥٓ أَصۡحَٰبٞ يَدۡعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلۡهُدَى ٱئۡتِنَاۗ قُلۡ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰۖ وَأُمِرۡنَا لِنُسۡلِمَ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٧١ ﴾ [الأنعام: ٧١]. فضيق الصدر واضطرابه، وحيرة النفس وعدم استقرارها، وتوزع الهموم وتشتت البال موانع الهدى، ويُقابل ذلك كلَّه حصول اليقين والعلم والاطمئنان ولا يكون لهذه وجود إلا مع انشراح الصدر حيث يستقر العلم ويقع اليقين ويحصل الثبات كما قال تعالى: ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجٗا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِۚ كَذَٰلِكَ يَجۡعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ١٢٥ ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

فشرح الصدر حال عِلْمٍ وعَمَلٍ، وليس مجرَّد خير معرفي لا يمتزج مع النفس والحياة والإرادة، والذي وقع لرسوله ﷺ من حال التسليم والرضا والاطمئنان لما يُلقى عليه إنما هو الذي حقق له الانشراح.

الحيرة جهل وقلق، وهي ظلمة تلقي على النفس قيوداً من الخوف والاضطراب فيقع معها الضيق، والعلم النافع نور يُذهب الظلمة فيحصل الانشراح والبسط، ويتحقق الاطمئنان، وهذا ما وقع لإبراهيم الخليل عليه السلام حين طلب رؤية كيفيَّة إحياء الموتى وعَلل الطلب بقوله: ﴿لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾ [البقرة: ٢٦٠]، والعلم له حالان؛ حال إيمان ولا يكون هذا الاسم إلا لما هو غيبي، فلا يُقال للمشاهد مؤمن، وإنما يُقال للمصدق بالغيب، وأمَّا الحال الآخر فهو حال مشاهدة بالبصر أو بالبصيرة، وهو حال الاطمئنان، وللمرور إلى حال الاطمئنان لا يكون إلاَّ بالحال الأول، وهي حال لا تكون إلا بتسليم القلب لمحنة الأقدار والتشريعات، حتى مع كراهة النفس أو عدم فِقهها، ويشهد لهذا حديث سبب نزول خواتيم سورة «البقرة» ففيه أنَّه: «لَمَّا نَزَلَتْ عَلَى رَسُولِ اللهِ: ﴿لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾﴾ [البقرة: ٢٨٤]. قَالَ فَاشْتَدَّ ذلِكَ عَلَى أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ فَأَتَوْا رَسُولَ اللهِ ثُمَّ بَرَكُوا عَلَى الرُّكَبِ. فَقَالُوا: أَيْ رَسُولَ اللهِ! كُلِّفْنَا مِنَ الأَعْمَال مَا نُطِيقُ. الصَّلاَةُ وَالصِّيَامُ وَالْجِهَادُ وَالصَّدَقَةُ. وَقَدْ أُنْزِلَتْ عَلَيْكَ هذِهِ الآيَةُ. وَلاَ نُطِيقُهَا. قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَتُرِيدُونَ أَنْ تَقُولُوا كَمَا قَالَ أَهْلُ الْكِتَابَيْنِ مِنْ قَبْلِكُمْ: سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا؟ بَلْ قُولُوا: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ» قَالُوا: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ. فَلَمَّا اقْتَرَأَهَا الْقَوْمُ ذَلَّتْ بِهَا أَلْسِنَتُهُمْ. فَأَنْزَلَ اللهُ فِي إِثْرِهَا: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾﴾ [البقرة: ٢٨٥]. فَلَمَّا فَعَلُوا ذلِكَ نَسَخَهَا اللهُ تَعَالَى، فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]. (قَالَ: نَعَمْ) ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]. (قَالَ: نَعَمْ) ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا

﴿مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٦]. (قَالَ: نَعَمْ) ﴿وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾﴾ [البقرة: ٢٨٦]. (قَالَ: نَعَمْ)»[1].

فقوله: «فَلَمَّا اقْتَرَأَهَا الْقَوْمُ ذَلَّتْ بِهَا أَلْسِنَتُهُمْ» دلَّ هذا على المُجاهدة لما هو مكروهٌ في النفوس، وكذلك عدم إدراك المقصود، وهذا هو ابتلاء العِلم، وأما ابتلاء القدر فهو أشد للدَّاعي والعامل[2]، إذ تمر الأقدار الكثيرة عليه وهو لا يفهم وجهها، وتغيب عنه عاقبتها كحال كلِّ ابتلاء، وهو من جنس ما وقع للصَّحابة في الحُديبية حيث غاب عنهم معناها حتى سمَّى الله ما وقع فيها «فتحاً»، وقد وقع من كِبارهم كالفاروق ﷺ من القول والحال ما استغفروا الله عليه بعد ذلك فإنَّه قال: «فَعَمِلْتُ لِذَلِكَ أَعْمَالاً»[3]. وذلك لَمَّا كان من مُراجعته لرسول الله ﷺ في أمر الصلح.

فتمام الاطمئنان يكون باستقرار العِلم حالاً، وبدفع العوارض عنه، وهذا لا يكون إلاَّ بالعمل الصالح وديمومته، وبرؤية الأقدار على وجهها من المعاني والإرادات الإلهيَّة، وأَولى النَّاس بهذين الأمرين هما العالِم العابد والعامل المجاهد، داعياً في مقام الدعوة، آمراً بالمعروف وناهٍ عنِ المنكر، فكلاهما يُعاني مشكلات الوجود؛ العلميَّة والعمليَّة والله يقول: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾﴾ [الزمر: ٢٢].

يشغب على هذا المعنى رؤية الجاهل المطمئن، والساكن الآمن، حيث يظن فيهما الانشراح بلا مُعاناة علم ولا مجاهدة دعوة، وهذا تشغيب لا قيمة له، لأن الجاهل المُطمئن والساكن الآمن إنما انماثت إرادته، فقعدت عن المعالي والمعاني، وهذا ليس انشراح صدر، فإن الانشراح الحقيقي لا يكون إلاَّ مع إرادة المعالي

[1] «صحيح مسلم»: ٢/١٩٩/ح٢٨٨.
[2] قال الشيخ حفظه الله للداعي والعامل ولم يقل على الداعي والعامل لأن الابتلاء منحة في نفوس المؤمنين.
[3] «صحيح البخاري»: ٢/٩٧٤/ح٢٦٧٣.

والمعاني، حيث ترتاح النفس لهما، أمَّا أن يُزعم أنَّ خُلو الإنسان عن الإرادة والهمَّة يحقق له الراحة فهذا خروج عن حال الإيمان القرآني وذلك في قوله: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [المطففين: ٢٦]، وقوله ﷺ: «إنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يُحِبُّ إِذَا عَمِلَ أَحَدُكُمْ عَمَلاً أَنْ يُتْقِنَهُ»[1]، وقوله ﷺ: «إِذَا سَأَلْتُمُ اللهَ فَاسْأَلُوهُ الفِرْدَوْسَ»[2].

والقصد أنَّ الانشراح القلبي يكون بالخروج من الظلمات إلى النُّور، وأعلى الظلم هو الشرك ثم توابعه من المعاصي والفسوق، ثم بالعلم القرآني النافع، وأما للداعي إلى الله فإنَّما يتحقق باليقين على حِكمة الله في أقداره، وذلك برؤية أسبابها وآثارها وعواقبها وحِكمتها.

فبالعودة إلى الحال الأول الذي عليه رسول الله ﷺ عند حصول الوحي هو خوفه من هذا الطارئ وعدم إدراك معناه على وجه الاطمئنان، ثم الخوف من مستقبله مع النَّاس حيث واجهه ورقة بن نوفل رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بما سيُلاقيه في هذا السبيل، فالأول علمي والثاني قدري.

فبشرح الصدر دُفِعَ الأمران، وحصل لرسول الله ﷺ القبول القلبي لهذا العِلْمِ الوارد، وهذا الطارئ الجديد، وتحقق له معناه بأنَّه الحقُّ وأنَّها النُّبوَّة، كما حصل له اليقين على دخوله في سِلك السابقين من الأنبياء وأنَّ حاله كحالهم، وما سيكون له إنَّما جرى للسابقين من إخوانه، فتحقق اجتماع الرضى القلبي مع الحقِّ الوارد، وهذا لَعَمْرُ الله هو تمام الانشراح والبسط، حيث يحصل اجتماع مُراد العبد بالرضى مع مُراد الربِّ بالأمر والقدر، وعلى الضدِّ من هذا الشرح

---

[1] «شعب الإيمان»: ٤/٣٣٤/ح٥٣١٢.

[2] «المُسند»: ٦/٤٣٨/ح٢٢٣٦٠. «مسند البزار»: ١/١٣٩/ح٤٢٠٣. بزيادة: «..فإنه أعلى الجنة». وقال: وهذا الحديث قد روي نحو كلامه عن النَّبيِّ ﷺ من غير وجه ولا نعلم يُروى عن العِرباض إلا من هذا الوجه بهذا الإسناد.

الإلهي يقع القبض عنِ الحقِّ وعدم رِضاه، أو البسط إلى الباطل والاستمتاع به، والقرآن في هذا بيّن في إيضاح الحالات القلبيَّة مع الباطل، فهو يتحدث عن حالين معه؛ **أمَّا الأول**: فهو الضيق كما قال تعالى ـ وقد تقدم ـ: ﴿**وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا**﴾ [الأنعام: ١٢٥]، أو كقوله: ﴿**كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا**﴾ [الأنعام: ٧١]، أو كقوله: ﴿**وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ**﴾ [الحج: ٣١]. وهذا كلُّه داخل في قوله تعالى: ﴿**وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا**﴾ [طه: ١٢٤].

أمَّا الآخر: فهو البسط إلى الباطل والاستمتاع به كما قال تعالى: ﴿**وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ**﴾ [الأنعام: ١٢٨]، وقوله: ﴿**وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ**﴾ [البقرة: ٩٣]، وكقوله تعالى: ﴿**كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ**﴾ [الأنعام: ١٠٨].

والحال الثاني أعظم ضلالاً من الأول، ولا يكون إلاَّ بالمرور من الحال الأول، وهذا تراه في كبار المجرمين والمشركين وطواغيتهم، فإنهم يستلذون بالباطل ويتمتعون به وتنبسط قلوبهم له، بل قد تظهر لهم أحوال من اللذَّة النفسية والعقلية ما يجعلهم في حال استغراق بعيد لما هم فيه، وهي لذّة تشبه لذَّة المريض بالجرب حين يهرش جسده منه، وهي لذَّة مُدمن المخدرات التي تقتله حين يأخذها، وهكذا.

وهذا الحال خطير جداً، إذ قد يُصيب كلَّ مُتَّبعٍ لباطل حتى لو لم يكن شِركاً، فإن قوله تعالى: ﴿**كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ**﴾ عامٌّ في كلِّ عاملٍ ومُتَّبعٍ، وليس هذا من الشرح الذي يُصيب قلوب أهل الحقِّ، لأنَّ هذا التزيين ليس هو الحال الأول الذي يقع به مُتَّبع الباطل، بل إنَّ للباطل ظُلمة في القلوب، فما أن يقع ابتداءً حتى تُنكره النفس للحديث: «والباطل لجلج»، لكن مع طول السكوت يحصل الائتلاف والتزيين، وأمَّا مُتَّبع الحقِّ فإنَّ ما يقع له من الشرح إنَّما يكون منذ الدفقة

الأولى كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، وكما قيل: «الحقُّ أبلج»، وهذا ما يقع لكلِّ مهتدٍ للحقِّ كما في القصص المُتواترة في ذلك، ومنها ما وقع للصَّحابة ﷺ حيث يكثر القول في قصص إسلامهم من تغيّر وجوههم فيُقال: «رجع بغير الوجه الذي ذهب به»[1]، وهذا كلُّه يدخل في هذا المعنى.

لكن كيف تكره النفس الحقَّ ولا تنشرح له؟!

اعلمْ أنَّ كراهية النفس للحقِّ يكون لمعاني متعددة، منها كراهة النفس للتكليف وذلك كقوله ﷺ: «حُفَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ»[2]، ومنها استمراء النفس على الباطل وطول ألفتها له، ولذلك فالعاقل لا يتبع انشراح النفس ابتداءً، إنَّما يَتَّبع الحقَّ حتى لو كرهه، ففي الحديث الذي رواه أحمد[3] عن أنس: أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال لرجل: «أَسْلِمْ تَسْلَمْ» قال: إنِّي أجدني كارهاً، قال: «أَسْلِمْ وإنْ كُنْتَ كَارِهاً».

وهذا العاقل بعد اتِّباع الحقِّ والصبر عليه سيجد لذَّة الانشراح له بعد ذلك.

والنعم قد تُعطى ابتداءً، وقد تُعطى بعد مُعاناةٍ، وذلك كنعمة القوَّة، فقد يَمُنُّ الله بها على عبدٍ مع مولده دون مُعاناةٍ شديدةٍ منه، وقد يُحصِّلها بعد طُولِ مُعاناةٍ وتمرين، ولكلِّ واحدةٍ فضلها، أما إن سئل ما الأفضل، فإن ما يُعطى في الابتداء

---

[1] قيلت في أُسيد وسعد بن معاذ رضي الله عنهما بعد أن عرض عليهما مُصعب بن عُمير رضي الله عنه الإسلام فأسلما، وبسبب إسلام سعد بن معاذ ما أمسى في قومه رجل ولا امرأة إلا مسلماً ومسلمةً، إلا رجل واحد ـ وهو الأُصَيْرِم ـ تأخر إسلامه إلى يوم أُحد، فأسلم ذلك اليوم وقاتل وقُتل، ولم يسجد لله سجدة، فقال النَّبي ﷺ: «عمل قليلاً وأجر كثيراً». «صحيح البخاري»: ٣/١٠٣٤/ح٢٧٤٧.
انظر القصة في كتاب: «الرحيق المختوم» لصفي الرحمن المباركفوري ـ رحمه الله تعالى.

[2] «صحيح مسلم»: ١٧/١٣٨/ح٧٠٧٩.

[3] «المُسند»: ٣/٥٤٩/ح١١٨٠٥، ٤/٢٥/ح١٢٥٧٦. وهو أيضاً عند أبي يعلى الموصلي في «مسنده»: ١٩/٣٤٤/ح٣٨٨٢. وقال عنه الهيثمي في «مجمع الزوائد ومنبع الفوائد»: ٥/٥٥٤/ح٩٥٨٣: رواه أحمد وأبو يعلى ورجالهما رجال الصحيح.

يحصل فضله بالشكر وإلاَّ فهو نقمة، وأما ما يُعطى بالعناء فشكره هو تحصيله، فمن شرح الله صدره لحقٍّ ابتداءً فإنَّ حصول الفضل لهذا المرء أن يُؤدي شكرها وإلاَّ انقلب ضيقاً وفاته فضلها، وأمَّا مَن حصل له الشرح بعد مُعاناةٍ فإنَّ فضلها هو تحصيلها، ففي المآل إنْ استقرت نعمة الشكر لهما فإنَّما التفاضل بالعمل لا بذات النعمة، والله أعلم.

فهذه النعمة مِن شرح الصدر هي مقدمة كلِّ النعم، فليس هناك من نعمة في الوجود يحصل لصاحبها خيرها إلا بشرح الصدر لها ابتداءً ولغيرها معها، وإلا فالمرء إنما يسعد لِما يُحسُّ من معانٍ في باطنه للنعم الظاهرة والباطنة، فكم من صاحب نعمة وهو من أشقى النَّاس بها أو بغيرها فلا يُحسُّ بها ولا بغيرها، وهذا من أشدِّ العذاب كما قال تعالى: ﴿ **وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا** ﴾ [طه: ١٢٤].

فشرح الصدر للمعاني يكون نعمة إذا كانت المعاني حقّاً، وشرح الصدر للنعم الظاهرة أمرٌ زائدٌ عليها لا يحصل التنعُّم بها إلا مع هذا الشرح وإلا فهي ضيق، وسيفوت الإنسان التنعّم والتلذذ بها.

وحاجة الداعي خصوصاً لشرح الصدر أكثر من حاجة غيره إليها، لأنَّ الدعوة حمل وابتلاء، وآلام ومُعاناة، ومن غير شرح الصدر للحقِّ الذي يحمله فإنَّ طول الطريق ستؤدي به حتماً إلى الهرب والتخلِّي، وبشرح الصدر تصبح الدعوة للحقِّ وتحمل البلاء في سبيله رغبةً وفرحاً، ولا يكون له هذا الفضل إلاَّ بالعلم حالاً ومقاماً، وبإدراك حكم الأقدار والتسليم ليد الله تعالى فيها حتى تذوب إرادته، فتتحقق فيه العبودية التامة، إذ أنَّ هذا معنى العبودية، فإنَّ كلمةَ العبد حقيقتها التسليم وترك الاعتراض باطناً وظاهراً.

هذا المنّ الإلهي على رسوله ﷺ بقوله: ﴿ **أَلَمۡ نَشۡرَحۡ لَكَ صَدۡرَكَ ١** ﴾ [الشرح: ١]. يُبيِّن لك أهميَّة حال الوعاء الحامل للمعاني، إذ لا يكفي أن تكون المعاني صالحة، بل

لا بدَّ مِن صلاح الوعاء، وهذا بابٌ من أبواب القَدر الذي استأثر الله علمه به، وهو داخل في قوله ﷺ: «إذا ذُكر القدر فأمسكوا»[1]، لأنَّه لو سأل سائل لِمَ خَلَقَ الله وعاءً صالحاً ووعاءً فاسداً وما هو مِعيار هذا التقسيم القَدري في عالم الغيب، لَكان الجواب: إنَّ هذا مما قال فيه ابن عباس رضي الله عنهما: «الناظر في القدر كالناظر في الشمس كلَّما ازداد فيها نظراً ازداد فيها حيرة»[2]، والله يقول: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ [القصص: ٦٨]، وعلى العبد إنْ عَلِمَ الحقَّ أن يجاهد نفسه لتحصيل حُبَّه، فإن لم يحصل له ذلك فليعمل به مجاهداً لنفسه عملاً وامتثالاً.

يقول تعالى: ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾﴾ [الشرح: ٢ ـ ٣].

تقدَّم أنَّ شرح الصدر الممدوح يكون للحقِّ، ولمّا كان الإنسان له نصيبٌ من الوزر كما قال رسول الله ﷺ: «كُلُّ ابنِ آدَمَ خَطَّاءٌ وَخَيْرُ الْخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ»[3] ولقوله ﷺ: «إِنَّ اللهَ كَتَبَ عَلَى ابْنِ آدَمَ حَظَّهُ مِنَ الزِّنَا، أَدْرَكَ ذَلِكَ لاَ مَحَالَةَ ...الحديث»[4]. كان من عوارض هذا الشرح هو الذنب، لأنَّه ظلمة وضيق كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّـٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَـٰتِ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، ولقوله تعالى عن ابن آدم الأول لما قتل أخاه: ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّـٰدِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ [المائدة: ٣١]، ولقوله: ﴿وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ [آل عمران: ١١٩]. وغير

---

[1] «مُسند الحارث» للهيثمي: ٢/٧٤٨/ح٧٥٢. وقال عنه الحافظ العراقي في «تخريج أحاديث الإحياء»: رواه الطبراني من حديث ابن مسعود بإسناد حسن.

[2] ذكره ابن عبد البر رحمه الله تعالى في «جامع بيان العلم وفضله»: ١/٩٤٥. ونسبه إلى جعفر بن محمد.

[3] «سنن الترمذي»: ٧/٢١٣/ح٢٥٤٧. وقال أبو عيسى: هذا حديثٌ غريبٌ لا نَعْرِفُهُ إلاَ من حديثِ عَلِيِّ بنِ مَسْعَدَةَ عن قَتَادَةَ. ولأحمد في «المسند»: ٤/٥٣/ح١٢٧٥٧. رواية عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كُلُّ ابْنِ آدَمَ خَطَّاءٌ، فَخَيْرُ الخطَّائينَ التَّوَّابُونَ، وَلَوْ أنَّ لابْنِ آدَمَ وَادِيَيْنِ مِنْ مالٍ لابْتَغَى لَهُما ثالثاً، ولا يَمْلأ جَوْفَ ابْنِ آدَمَ إلاّ التُّرابُ».

[4] «صحيح البخاري»: ٥/٢٣٠٤/ح٦٢٤٣. طرفه ٦٦١٢.

ذلك من الآيات، كان من تمام استقرار نعمة الشرح ومِن دفع الإرادة وانطلاقها لمهمات العبودية أن يرفع الوزر الثقيل عنِ الداعي العامل، ولذلك كان من أعظم النعم على رسوله ﷺ أن قال له في بيان نعمة الفتح والنَّصر: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ١-٢]، وبحصول هذا الفضل العظيم كان الارتقاء إلى نعمة الشكر كما قال رسولنا ﷺ لأُمنا عائشة رضي الله عنها: «أَفَلاَ أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا»[١].

ومن مُبشرات الأنبياء لشعوبهم آمنوا حصول المغفرة ورفع الذنب كما بشر بذلك نوح عليه السلام أُمَّته بقوله: ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۝٣ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ [نوح: ٣-٤]، وكقوله تعالى على لسان نوح وهود وصالح لأقوامهم: ﴿۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ [إبراهيم: ١٠]، وهذا ما قالته الجنُّ لأقوامهم لما سمعوا القرآن: ﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ [الأحقاف: ٣١]، وذلك لفِقههم أنَّ أعظم النعم الربَّانيَّة على العبد هو محو الذنب ورفع الوِزر، وهذا لا يعرف قيمته إلاَّ مَن عَلِمَ معنى الذنب، فإنَّ الذنب ظُلْمٌ لحقِّ الله تعالى وظلم الإنسان لنفسه وظلمٌ للوجود كلِّه، فإنَّ أثر الذنب لا يقتصر على نفس الإنسان بل على الوجود كلِّه من سماواتٍ وأرضٍ وشجرٍ وجبالٍ ودوابٍ، وهذا في ذنب الإنسان مع نفسه، فإنْ كان ذنبه مُتعدياً في ذاته فإنَّ أثره أعظم وجريمته أشد، ولذلك كان أعظم الذنب بعد الشرك بالله هو ظلم النَّاس وإفسادهم كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ ۝٨٨﴾ [النحل: ٨٨].

[١] «صحيح البخاري»: ١/٣٨٠/ح١١١٣، ٤/١٨٣٠/ح٤٧١٧، ٥/٢٣٧٥/ح٦٤٧١. طرفاه ١١٣٠، ٤٨٣٦. «صحيح مسلم»: ١٧/١٣٦/ح٧٠٧٣، ٧٠٧٤، ٧٠٧٥.

فالعاقل يجتنبُ الذنب لمعاني كثيرة أولها أنَّ هذا خروج عن حدِّ العبودية لله تعالى، والله عزَّ وجلَّ يغار، وغيرته أن يأتي العبد ما حرَّم الله، وبالخروج عنِ العبوديَّة يحصل تسلُّط العدو على الإنسان كما قال تعالى عن الصَّحابة ﷺ في أُحد: ﴿إِنَّمَا ٱسۡتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِبَعۡضِ مَا كَسَبُواْ﴾ [آل عمران: ١٥٥]، والعبد العاقل يأنف أن يكون دابَّة يُقاد مِنْ قِبل خصمه، وأعظم خصومه الشيطان، ومن المعاني التي تمنع العبد اقتراف الذَّنب هو خروج العبد عن حدِّ الحياء بالذَّنب، فإنَّ الذَّنبَ عورة، فحيث يحصل للعبد ذنب يتم كشف عورته كما وقع لأبيه آدم عليه السلام كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا﴾ [الأعراف: ٢٢]، لأنَّ الذنبَ يعني الضعف والسوأة، والعاقل يأنف من كشف سوأته وعورته، والعاقل حيي يستتر عما يهينه ويصغره.

كما أنَّ العاقلَ يجتنبُ الذَّنبَ لآثار هذا الذَّنبِ، وأول آثاره وقوع غضب الربِّ عليه، والعبد واصب القدر في إرضاء سيده، معرض عما يوقع غضبه، كما أنَّ الذَّنبَ ظُلمةٌ للنَّفس ومُذهبٌ لنورها، وهو مميتٌ لإرادتها إلى الطاعات، مع ما على الذَّنب من عذابٍ أُخرويٍّ، ولذلك فإنَّ النِّعمةَ في الذَّنب أنْ لا يقعَ فيه العبد ويعصمه الله منه كما وقع هذا للمحسنين من عباده، فهذا يوسف عليه السلام يقول الله في منِّه عليه حيث منعه الفاحشة: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ ٢٤﴾ [يوسف: ٢٤]. وقال عن أُمِّ موسى عليهما السلام: ﴿وَأَصۡبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًاۖ إِن كَادَتۡ لَتُبۡدِي بِهِۦ لَوۡلَآ أَن رَّبَطۡنَا عَلَىٰ قَلۡبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٠﴾ [القصص: ١٠]، وقال عن نبيِّه محمد ﷺ وأخصِّ أصحابه من المهاجرين والأنصار في غزوة تبوك: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلۡعُسۡرَةِ مِنۢ بَعۡدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٖ مِّنۡهُمۡ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّهُۥ بِهِمۡ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ١١٧﴾ [التوبة: ١١٧].

ولذلك فإنَّ أعظم النَّاس مقاماً يوم القيامة هو محمد ﷺ صاحب الشَّفاعة العُظمى حيث يُدعى مِن قِبل الخَلْقِ بها فيقوم لها، وذلك لخلوِّه من هذا الأمر، ولذلك فمعنى قوله تعالى هنا لرسوله ﷺ: ﴿وَوَضَعۡنَا عَنكَ وِزۡرَكَ ۝٢﴾ [الشرح: ٢]، إنما هو التوبة برفع الذَّنب قبل وُقوعه، ومنع صدوره منه، وهذا أعظم معاني التوبة والرحمة.

وكلُّ الآيات التي فيها دعوة لرسول الله ﷺ للاستغفار هي بهذا المعنى، وذلك قبل قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ وَلَا تَكُن لِّلۡخَآئِنِينَ خَصِيمٗا ۝١٠٥ وَٱسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ۝١٠٦ وَلَا تُجَٰدِلۡ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخۡتَانُونَ أَنفُسَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمٗا ۝١٠٧﴾ [النساء: ١٠٥ـ ١٠٧]، فإنَّ الاستغفار هنا لا لِدفعِ ذنبٍ وقعَ، ولكنه لمنع ذنبٍ لم يقعْ، وهذا أعظم مراتب الاستغفار، وهو الذي طلبه رسول الله ﷺ من أبي بكر الصدِّيق لما سأله عن دعاء يدعو به ربَّه فقال له قُلْ: «اللَّهُمَّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْماً كَثيراً، وَلاَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ أَنْتَ. فَاغْفِرْ لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ وَارْحَمْنِي، إِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ»[1]، وهذا الاستغفار هو ما يحقق منع الذَّنب، كما يحقق رفع الدرجات وتحصيل القُرب من الربِّ، وأدنى منه ـ وهو عظيمٌ عند الله تعالى ـ هو استغفار العبد عن حاله في كونه هذا الإنسان الذي قال الله عنه: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومٗا جَهُولٗا ۝٧٢﴾ [الأحزاب: ٧٢]. فهو يستغفر الله تعالى من هذا المقام الذي هو فيه، فيستغفر الله من ظُلمه وجهله، والإنسان من حيث هو كذلك فيه مُوجب الاستغفار قدراً لازِماً لا ينفكُّ عنه.

ومن مُوجبات الاستغفار عند المحسنين ما يفعله المرء بعد الطاعات طلباً لتكميلها وإتمامها، كما يستغفر العبد ربَّه بعد الصلاة، وكما قال الله لرسوله ﷺ:

---

[1] «صحيح البخاري»: ١/٢٨٦/ح٨٢٥. واللفظ له. «صحيح مسلم»: ١٧/٢٥/ح٦٨١٩. وفي روايته: «ظُلماً كَبيراً» بدل: «ظلماً كَثِيراً».

﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ۝٣﴾ [النصر: ١ ـ ٣]، وهذا المُوجب فرعٌ عنِ المعنى المُتقدم من حيث قدر الإنسان بالضعف والجهل والظلم.

ومن مُوجبات الاستغفار عند الصالحين ما يقع منهم قدراً مما لا يكون ذنباً ولكنَّه من معاني قدرهم بالضعف والظلم والجهل، وذلك كالمرور عند ديار الظالمين فإنَّ النَّبيَّ ﷺ قال لأصحابه في غزوة تبوك: «لاَ تَدْخُلُوا عَلَى هَؤُلاَءِ الْقَوْمِ الْمُعَذَّبِينَ. إِلاَّ أَنْ تَكُونُوا بَاكِينَ»[١]، ومثل هذا المعنى عند رُؤية الآيات التي فيها العذاب كالخسوف وما في معناها من الوقائع القَدريَّة، فإنَّ مجرد وجود الإنسان حتى مع صلاحه، في هذا المكان هو معنى من معاني إنسانيَّته التي حَكم الله عليها بالضعف والظلم والجهل وهي مُوجبات الاستغفار.

وأما المُوجب الذي هو من رحمة الله تعالى على العبد فهو استغفار العبد لذنبه الذي يقعُ منه، وهذا مع ما فيه من رحمة إلهية إلاَّ أنه من محبوبات الربِّ جلَّ في عُلاه، فإنَّ الله الذي خلقَ الإنسانَ ضعيفاً، وظهر الضعف في الأب آدم عليه السلام كما قال تعالى: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ۝١٢١﴾ [طه: ١٢١]، لكن لِتظهر رحمة الله تعالى في قدر هذا الضعف أن قال بعدها فتحاً لِباب السُنَة لأبنائه من بعده: ﴿ثُمَّ ٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيۡهِ وَهَدَىٰ ۝١٢٢﴾ [طه: ١٢٢]، وقد كان اليأس من رحمة الله تعالى باباً أكبر للشيطان في قلب المرء الضالِّ، ولذلك فإنَّ من أسماء الله تعالى «الغفور» وهو لا يكون تأويله إلاَّ بحصول الذنب من العبد ثم الاستغفار، فيكون تأويله بالمغفرة والعفو، وهذا بابٌ لا يُغلق بل تِكرار العبد في وُلُوجِه موجبٌ للرضى

---

[١] «صحيح البخاري»: ١/١٦٧/ح٤٢٩، ٤/١٦٠٩/ح٤٣١٢، ٤/١٧٣٧/ح٥٨٤. «صحيح مسلم»: ١٨/٨٨/ح٧٤١٣.

الإلهي كما في الحديث: «إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ، لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ. وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ، لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ. حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا»[١].

ومن المعلوم أنَّ بعض أُسسِ الأديان الباطلة هو اليأس من رحمة الله، والاعتقاد بنجاسة الإنسان أصلاً، ووراثة له من أبيه، ولا يتصور منه الطهر ولا الصلاح، وهذا هو أساس دين النصرانية، حيث تفرع منه القول بالخلاص، وذلك في عقيدة الصلب، إذِ المنشأ هو الخطيئة ثم الصلب ثم الخلاص، فكان أساسها الضلال ثم ختمت بأفسد من الأصل، وهو رفع التكليف بحصول الصلب المزعوم الذي حصل به الخلاص كما تفسر ذلك رسائل بولس خاتمة الإنجيل المحدث.

ولهذا قال الله تعالى عن هذه الأُمَّة في دعائهم، وهو مما وقع: ﴿**رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا**﴾ [البقرة: ٢٨٦]. فوجود الذنب «الإصر» هو مما حصل به التشريع المضيق كما قال تعالى: ﴿**فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ**﴾ [النساء: ١٦٠].

ولذلك كان بعد ذِكر توسيع باب الحِل، وجعله أصلاً، ثم جعل الحُرمة استثناءً عنِ الأصل أنْ قال الله تعالى بعدها: ﴿**يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾**﴾ [النساء: ٢٦-٢٨]، وهذا كلُّه داخل في هذا المَنِّ الإلهي في هذه الآية: ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾﴾ [الشرح: ٢ - ٣]، فإنَّه سبحانه جعله معصوماً مِن الذَّنب، وهذه أعظم درجات التوبة كما تقدَّم، ثم جعل دينه

---

[١] «صحيح مسلم»: ١٧/٦٧/ح٦٩٣٨.

وشرعه ليس فيه من معاني الإصر التي كانت على الأُمم السابقة، وهذا يُظهر عظمة مقام هذا النَّبي ﷺ ومقام شرعه ومقام أُمَّته.

ثمَّ إنَّ ذِكر هذه الآية وأشباهها في القرآن مِن ذِكر رحمة الله بنبيِّه، ومغفرته لذنبه، بل وذِكر ما عُوتب فيه كما في قوله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ ﴿٤﴾﴾ [عبس: ١-٤]، وكقوله تعالى في أخذ الفداء في أسرى بدر: ﴿لَّوۡلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمۡ فِيمَآ أَخَذۡتُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾ [الأنفال: ٦٨]. يدل على أنَّ الذَّنب ليس مما يُعيَّر به المرء، فإنَّ التعيير بالذَّنب، وما في معناه مما يفعله بعض النَّاس ممن يهتمون بالأرشيف وذِكر مثالب وأخطاء الدُّعاة والعلماء إنَّما هو طريقة فرعونية كما فُعِلَ مع موسى عليه السلام لّما قال له حين جاءه داعياً: ﴿وَفَعَلۡتَ فَعۡلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلۡتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾﴾ [الشعراء: ١٩]، وكان مِن فِقه موسى عليه السلام أن أقرَّ بها، وأقرَّ بالتوبة وقال: ﴿قَالَ فَعَلۡتُهَآ إِذٗا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾﴾ [الشعراء: ٢٠]، وقد نهى الله عبيده عن هذا الفِعْلِ، وهو التعيير بالذَّنب الذي تاب منه صاحبه فقال سبحانه: ﴿كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبۡلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ﴾ [النساء: ٩٤]، فالذنب قدر الإنسان حيث هو، وإنما يُعيَّر الُمجاهر والُمصرُّ والُمستكبر، وحين يكون الأمر كذلك؛ أي قدر النَّاس جميعاً فلا يُثرِّبُ على الواحد كما قال رسول الله ﷺ ناهياً عن الضحك مِنَ الضَّرْطَةِ: «لِمَ يَضْحَكُ أَحَدُكُمْ مِمَّا يَفْعَلُ»[١]، فهذا قدر النَّاس جميعاً لا واحداً دونهم.

فالداعي إلى الله ليس مَلَكاً، ولا هو مقطوع التاريخ والحياة، بل هو إنسان له أحوال الضعف والغفلة والنِّسيان، ووقوع الذَّنب منه تاريخيا وحالاً لا يمنعه من أداء الرسالة وتبليغ الأمانة، ومن دلائل يأس الإنسان من رحمة الله تعالى أن يترك التبليغ بسبب ذنبٍ أصابه، ويدفع ذلك يقينه أنَّ التوبة تجبُّ ما قبلها وتدفع

[١] «صحيح البخاري»: ٤/١٨٨٨/ح٤٩٤٢. أطرافه ٣٣٧٧، ٥٢٠٤، ٦٠٤٢. «صحيح مسلم»: ١٧/١٥٩/ح٧١٤٠. لفظ مسلم: «إِلاَمَ يَضْحَكُ أَحَدُكُمْ مِمَّا يَفْعَلُ».

عنه أثر الذَّنب ومساءلته، فهذا يونس عليه السلام حصل له الفضل بعد التوبة كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾﴾ [القلم: ٤٨-٥٠]، بل إنَّ من إشارات القرآن هو استغلال القُرب من الله لحظة التوبة من الذَّنب لتحصيل المُراد من المسائل والغايات والمقامات كما وقع من سليمان عليه السلام كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾﴾ [ص: ٣٤-٣٥]، وذلك لمّا يعلم العبد أنَّ التوفيق للتوبة هو مقام يحبُّه الله تعالى، فاجتباء المرء له؛ أي إلى مقام التوبة المحبوب يدعوه لطلب المزيد، واستثمار هذه النفحة الإلهيَّة الكريمة.

ووجود الرسول ﷺ في هذا المقام دوماً هو الذي حقق له قوله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴿٥﴾﴾ [الضحى: ٥]، «فصلَّى الله على نبيِّنا كُلَّما ذكرَه الذَّاكرون، وغفلَ عن ذِكْره الغافلون، وصلَّى عليه في الأَوَّلين والآخرين، أفضلَ وأكثرَ وأزكَى ما صلَّى على أحدٍ من خَلقه. وزكَّانا وإيَّاكم بالصَّلاة عليه، أفضل ما زكَّى أحداً من أُمَّته بصلاته عليه. والسلامُ عليه ورحمةُ الله وبركاتُه، وجزاهُ اللهُ عنَّا أفضلَ ما جزَى مُرسَلاً عن مَن أُرْسِلَ إليه»، كما قال إمام أهل السنَّة والفقه محمد بن إدريس الشافعي في صدر كتابه «الرسالة»[١].

ومقام أتباعه من بعده في مُقاربتهم لهذا الشأن العظيم هو دوام الاستغفار حتى يحصل لهم ما قاله ﷺ: «إِنَّ عَبْدًا أَصَابَ ذَنْباً - وَرُبَّمَا قَالَ أَذْنَبَ ذَنْباً - فَقَالَ رَبِّ أَذْنَبْتُ - وَرُبَّمَا قَالَ أَصَبْتُ - فَاغْفِرْ لِي فَقَالَ رَبُّهُ أَعَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ غَفَرْتُ لِعَبْدِي. ثُمَّ مَكَثَ مَا شَاءَ اللهُ، ثُمَّ أَصَابَ ذَنْبًا أَوْ أَذْنَبَ ذَنْباً، فَقَالَ رَبِّ أَذْنَبْتُ - أَوْ أَصَبْتُ - آخَرَ فَاغْفِرْهُ. فَقَالَ أَعَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ

---

[١] «الرسالة»: ١٠٧-١٠٨.

وَيَأْخُذُ بِهِ غفَرْتُ لِعَبْدِي ، ثُمَّ مَكَثَ مَا شَاءَ اللهُ ثُمَّ أَذْنَبَ ذَنْباً ـ وَرُبَّمَا قَالَ أَصَابَ ذَنْبًا ـ قَالَ قَالَ رَبِّ أَصَبْتُ ـ أَوْ أَذْنَبْتُ ـ آخَرَ فَاغْفِرْهُ لِي. فَقَالَ أَعَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبّاً يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ غَفَرْتُ لِعَبْدِي ـ ثَلاَثًا ـ فَلْيَعْمَلْ مَا شَاءَ»[1] .

فقوله سبحانه: «فَلْيَعْمَلْ مَا شَاءَ» هو من نفس معنى «مغفرة ما تأخر» وفيه بعض فضله: فما من خير أعطاه الله لرسوله ﷺ إلا وجعل بعض معانيه لأُمَّته من بعده ﷺ.

فكان من نعمة الله على رسوله ﷺ أنْ منع عنه وقوع الذَّنب قبل النُّبوّة، فلم يُعيّره الكفار بشيءٍ من الذَّنب فحقَّ لذلك قوله تعالى: ﴿ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ ﴾ [الشرح: ٢-٣]، لأنَّ انشغال الداعي بالدفع عن نفسه، متعبٌ له ومرهقٌ في دعوته، وكان هذا المقام كذلك مانعاً منه من الاستغفار للذَّنب إنَّما هو الاستغفار على المعنى العظيم الذي تقدَّم، وحسبُكَ أن تعلمَ قول القائل لموسى عليه السلام: ﴿ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾ ﴾ [القصص: ١٩]. لِتعلمَ معنى هذا المقام الذي أنعم الله به على نبيِّ هذه الأُمَّةِ المرحومة به ﷺ.

ولذلك فقوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ ﴾ [الشرح: ٣]. يدخل فيه هذان الأمران مع غيرهما، وهو ما يُصيب النَّفس من الذَّنب، وما يتحقق فيها من الظلمة عند اقترافها، وكذلك ما يتعب النَّفس من تعيير الخصوم له حين يدعوهم إلى الله تعالى، وقد فرَّج عن رسول الله ﷺ في هذين الأمرين ابتداءً قبل وُقوعهما.

الداعي إلى الله في تبليغه وإقامة الشهادة على الخَلق يكفيه ألم إعراض النَّاس عنه، ويكفيه ما يُلاقيه من اتهام الخصوم وأكاذيبهم ضدَّه، ولا ينبغي أن يُزاد عليه فوق ذلك ألم أثقال وأوزار الذُّنوب، وهي أشدُّ عليه، فبالأعداء تزداد

[1] «صحيح البخاري»: ٦/٢٧٢٥/ح٧٥٠٧.

إرادته اندفاعاً، وبصدِّهم يزداد تصميماً، لكن مما يُثقله ويُعطله هي أثقال الذُّنوب، ولذلك فإنَّه حريصٌ على إزالتها، وهذا مما يُوجب عليه خلوّه إلى نفسه بالاستغفار والتوبة والإنابة، فعليه أن يكون له ورده مِن الليل يُناجي به ربَّه، ويدعو فيه دعاء أبي بكر الصدِّيق رضي الله عنه: «اللَّهُمَّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْماً كَثيراً، وَلاَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ أَنْتَ. فَاغْفِرْ لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ وَارْحَمْنِي، إِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ». وينبغي أن يكون له السجود الطويل وهو يقول ما كان يقوله رسول الله ﷺ: «سُبْحانَكَ اللّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، اللّهُمَّ اغْفِرْ لي»[1]. يتأول القرآن كما تقول الصدِّيقة عائشة رضي الله عنها، فإنَّ هذا مما يشرح نفسه ويبسطها كما قال رسول الله ﷺ: «يَعْقِدُ الشَّيْطَانُ عَلَى قَافِيَةِ رَأْسِ أَحَدِكُمْ ثَلاَثَ عُقَدٍ إِذَا نَامَ. بِكُلِّ عُقْدَةٍ يَضْرِبُ عَلَيْكَ لَيْلاً طَوِيلاً. فَإِذَا اسْتَيْقَظَ، فَذَكَرَ الله، انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ. وَإِذَا تَوَضَّأَ، انْحَلَّتْ عنْهُ عُقْدَتَان. فَإِذَا صَلَّى انْحَلَّتِ الْعُقَدُ. فَأَصْبَحَ نَشِيطاً طَيِّبَ النَّفْسِ. وَإِلاَّ أَصْبَحَ خَبِيثَ النَّفْسِ كَسْلاَنَ»[2]، كما عليه أن يُكثر من الاستغفار بينه وبين ربِّه، كما عليه أن يُكثر من الوضوء، فإنَّ للوضوء أثره في رفع الذُّنوب وبسط النَّفس، ولقد كان بعض أهل العلم يتوضأ في الليل أكثر من مرة ويقول: «إنه يطيب نفسي».

وهذه السِمَة من سر انبساط النَّفس بالطاعة وخُلوها عن المعاصي وإدامة الاستغفار والإنابة وتنظيف النَّفس من عوائق الذُّنوب والأوزار هي عوامل التجديد الإيماني في حياة الأُمَّة المسلمة، لا كما يظنُّه بعض الناس من كثرة الصراخ والدعاوى وتسويد الأوراق، فإنَّ السمة الجامعة لقادة التجديد وأئمة الدِّين إنَّما هي الإخبات والعبادة والتضرع، فيحصل لهمُ العِلم النافع الذي

---

[1] «المُسند»: ١/٦٧٦/ح٣٨٩٠، ٢/٥/ح٤١٣٨، ٢/٣٩/ح٤٣٤٨، ٤٣٥٢، ٧/٣٢٨/ح٢٥٥٢٨. «صحيح ابن خُزيمة»: ٢/٣٠/ح٨٤٩. «صحيح ابن حبان»: ٦/٨٥/ح٦٢٩٩. «سنن ابن ماجه»: ١/٢٨٧/ح٩٢٠.

[2] «صحيح البخاري»: ١/٣٨٣/ح١١٢٥، ٣/١١٩٣/ح٣١٩٩. «صحيح مسلم»: ٦/٥٤/ح١٧٦٩.

يتحقق في حياتهم سلوكاً وحالاً ومقاماً، واعلمْ أنَّ أهون ما في هذا الطريق هو حفظ المتون ومعرفة حُروفها وألفاظها، لكن المُعاناة ودخول سبيل الصالحين والعلماء والدُّعاة لا يكون إلاَّ بالعمل الصالح حتى يكون حال صاحبه إن رأيته مُذكِّراً لك لله وللدار الآخرة، ومَن تفكَّر في تاريخ الأُمَّة المسلمة وكيفيّة إصلاحها وقيادتها لصلاحِ العالَم عَلِمَ أنَّ رجال هذه المهمَّة همُ العلماء الصالحون الذين جمعوا بين العِلمِ النافع، فبذلوا أنفسهم وأوقاتهم في سبيل تحصيله، وبين العمل الصالح من العبادة والإخبات والإنابة، والأُمَّة اليوم إنَّما تخبّطها ومنع تحصيل أهدافها في التغيير والإصلاح والقيادة إنَّما هو لتولي غير العلماء لها، فالنَّاس صنفان، إمَّا عالم ـ إلا مَن رَحِمَ ربِّي ـ في رِكاب الدنيا وزخارفها، فهو يُنافس أهلها، فلا زهد ولا عبادة ولا سمت صالح، وإمَّا عامل يبذل نفسه للدِّين بلا عِلْمٍ راسخٍ، والخير لا يكون إلاَّ باجتماع العِلْمِ مع البذل والمجاهدة، وإلاَّ فكيف يحصل الخير من خطيب جمعةٍ يأتي للنَّاس واعظاً وقد فاتته صلاة الفجر مع الجماعة؟! ولا أقول فاته قيام الليل، بل وكيف يأتي الخير من صاحب فتوى لا يدل سمته ولا بيته ولا حياته على أثر لذكرى الدار الآخرة؟!

يُقابل ذلك ما نراه من قادة العمل الإسلامي إذ يغلب عليهم قِلَّة العلم، بل هم يستهزؤون من حفظ القرآن والحديث وقراءة كتب الفقه، بل إنَّ أحدهم يسأل عنِ الكتاب الذي قرأه في الشريعة فيُجيب: «رياض الصالحين»، فهذا هو مِقدار علمه بالشرع والدين.

هذا هو الفِصام الذي يمنع تحقيق الهداية وقيادة الأمة لصالح أمرها، ولذلك تتوجه الأُمَّة إلى قيادات أُخرى غير مهدية لأنَّ معيارها مختلٌ برؤية هذا الفِصام، ولو رأت العلماء الصادقين الزاهدين العابدين، الذي يحملون معنى الدِّين سلوكاً، ومهمَّات قضايا الأُمَّة جهاداً لما التفتوا لغيرهم، ولَبايعوهم على الحقِّ والهُدى، ولكن هذا هو قدر هذه الأُمَّةِ، فحسبنا الله ونِعم الوكيل.

ولذلك فليعلم أنَّ هذا الدِّين والعمل فيه ليس كشأن العمل بأفكار البشر ومذاهبهم، بل هو عمل التعبّد والإخبات، والتجمّع فيه ليس الأمر فيه كأمر الأحزاب الدُّنيويَّة، والقيادة فيه لا تكون فيه إلاَّ كما قال تعالى: ﴿وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِي ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ﴾ [البقرة: ٢٤٧]، وكما قال تعالى: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾﴾ [القصص: ٢٦]، وكقوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [السجدة: ٢٤].

قوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾﴾ [الشرح: ٤].

مِن المعلومِ ضرورةً أنَّ الإنسان له حاجتان ضروريتان غير الأمور الدُّنيويَّة، وهو فقيرٌ إليهما فقر اضطراري لا اختياري؛ **الأول**: التعبد والخضوع، **والآخر**: الإمتثال والتعلق بالأُسوة، **فأولاهما**: قائمٌ بلا إله إلا الله، **والآخر**: قائمٌ بمحمد رسول الله، ومحنَّة الخَلق في الابتداء إنّما هو في الإباء والاستكبار كما في قوله تعالى عن إبليس: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ﴾ [البقرة: ٣٤]. والإباء هو ترك الخضوع لله، والاستكبار هو ترك الامتثال للغير كما قال القوم الكفرة: ﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَـٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [المؤمنون: ٣٤]، فالدِّين هو ما يحقق الأمرين؛ أي العبادة والدخول في الأُسوة، واختيار الله تعالى كما قال: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القصص: ٦٨]. للأنبياء وإدخالهم في محنَة الإيمان في دعوة أقوامهم هو رفع لهؤلاء الأنبياء، إذ بذلك يُصبح الإيمان بهم والدخول في قيادتهم وأُسوتهم شرطاً ثانياً بعد شرط توحيد الله لتحصيل الجنَّة ورضى الله تعالى، وهذا من الرفع الذي أعظم ما يكون ولا يبلغه مقام.

وهذا الاختيار للنُّبوة اصطفاء له سببه من علم الله تعالى بهم وبقلوبهم وبأدوات ما أُعطوا من إرادات وقُدرات لتحقيق هذا الاصطفاء والاختيار، والطعن في النُّبوّة طعنٌ في اختيار صاحب الأمر وهو الله تعالى، وردٌّ على الله في حكمة هذا الاختيار.

فالنُّبوَّة لا تحصل بالجُهد، لكنها لا تكون إلاَّ لوجود أسبابها من أقدار الله تعالى في هذا النَّبي المُختار، وهي مع ما فيها من اختصاص درجة ومقام، إلاَّ أنَّها كذلك فوق هذا الاختصاص فيها اختصاص العِلْمِ والعَمل، ولعلَّ هذا هو الذي أراده الإمام ابن حبان البستي في قوله: «النُّبوّة عِلْمٌ وعَمَلٌ»، إذ لم يقصد القصر، لكنه قصد وراء اختصاص النُّبوَّة بعد الاختيار، حيث يحصل للنَّبيِّ بعد هذا من اختصاص العِلم الذي لا يبلغه أتباعه، والعمل الذي لا يسبقونه به.

ورسولنا ﷺ له مقامات فوق هذا الاختيار؛ أي النُّبوّة، إذ له مقام الأفضلية فيهم، فهو خيرُ البشر، وهو خيرُ الأنبياء، ومن خصائصه في هذا الباب أنْ أخذ الله على جميع الأنبياء الميثاق الإيمان به واتّباعه إنْ أدركوه كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ [آل عمران: ٨١].

وهذا من أعظم رفع الذِكر له ﷺ حيث بشّر باسمه في التوراة والإنجيل كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾...الآية [الأعراف: ١٥٧]، وقال الله عن عيسى عليه السلام: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦].

وكان من رفع الذكر لاسمه ولمقامه - بأبي هو وأمي - هو سُنّة الأذان، وهي سُنّة لم تكن لأُمَّةٍ سابقاً، وفيه من رفع الصوت الذي يملأ الآفاق بذكر الحبيب المصطفى ﷺ.

هذا مع ما حصل له من المقامات في السموات وبين الملائكة وفي بقيّة الخلائق حيث سَلَّم عليه الحجر والدابة كما ثبت في ذلك أحاديث.

كما لا يُوجد نبيٌّ حصل له من الأتباع الذين يذكرونه ويُصلُّون عليه كما حصل للرسول ﷺ، فأُمّته أكثر الأُمم، وهم أكثر الأُمم صلاةً على نبيِّهم لما حصل لهم من الصلاة عليه من الفضل كما قال تعالى: ﴿ **إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ٥٦** ﴾ [الأحزاب: ٥٦]، وأجر الصلاة على الحبيب المصطفى كأجر سائر الذكر الذي يتعبّد به المسلمون كما في الحديث: «مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلاَةً صَلَّى الله عَلَيْهِ بِهَا عَشْراً»[١].

وهذا رفع الذكر الذي حصل للأنبياء بأنْ جعلهم أُسوة في التعبّد وقُدوة في السلوك يَسري في أتباعه من العلماء الصادقين، فالنَّاس وإن كان يغنيهمُ المثال المسطور، وهو ما ورد من الحديث عنِ النَّبِيِّ ﷺ إلاَّ أنّهم يحتاجون إلى أُسوةٍ قائمةٍ يرَونها حيث تعيش بينهم، ووجودهم هذا من الرحمة الربَّانيَّة بالخَلق، كما أنَّ عدمهم من العذاب كما قال تعالى: ﴿ **مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيّٗا مُّرۡشِدٗا ١٧** ﴾ [الكهف: ١٧]. ولذلك كان النَّاس زمن رسول الله ﷺ يقتدون به، ولا يلتفتون إلى سِواه، ويسألونه عنِ الدين ولا يسألون سِواه، لكنَّه لّما مات ـ بأبي هو وأمي ـ أوصى أُمَّته بأُسوة يعودون إليها كما قال ﷺ: «اقْتَدُوا بالَّذِينَ مِنْ بَعْدِي أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ»[٢].

فكان يرى الفاروقَ أنَّ عليه لُزوم طريقة النَّبِيِّ ﷺ، كما كان يرى أنَّ عليه لُزوم طريقة سلوك الصدِّيق رضي الله عنه، ولذلك كان من شرط بيعة الخليفة الثالث أنْ يسلك طريقة الشيخين رضي الله عنهما، هذا كلّه مع شرط القرآن: ﴿ **فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ٥٩** ﴾ [النساء: ٥٩]، وهذا المعنى كان حاجزاً في كلِّ قرنٍ وطبقةٍ من طبقات

---

[١] «صحيح مسلم»: ٤/٧٢/ح٨٠٠.

[٢] «سنن الترمذي»: ١/١١٣/ح٣٨١٥. قال أبو عيسى: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ. وفيه عن ابن مسعود وَرَوَى سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ هَذَا الْحَدِيثَ عَن عَبْدِ المَلِكِ بنِ عُميرٍ عن مَوْلَى لِرِبْعِيٍّ عَنْ رِبْعِيٍّ عَن حُذَيْفَةَ عَن النَّبِيِّ ﷺ.

الوجود الإسلامي، حيث كان المِثال القُدوة موجوداً وهو المقصود بقوله ﷺ: «فِي كُلِّ قَرْنٍ مِنْ أُمَّتِي سَابِقُونَ»[1]، وهؤلاء هم من حجج الله على أقوامهم وأهل طبقتهم، ثم إنَّ هذا هو دعاء ومطلب الصالحين بقولهم: ﴿وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾﴾ [الفرقان: ٧٤].

وبمقدار صلاح هؤلاء وعلمهم وتقواهم يكون صلاح وعلم الأتباع وأهل الطبقة، فنزول مرتبة المتبوعين هو نزول مرتبة التابع، ولذلك كان من محطات حصول التغييرات التاريخية في الأُمَّة أنْ وُجد أئمة هُداة فيهم صفة الفرادة والتميّز حيث ارتبطت هذه المرحلة بهم، باعتبارهم قادتها وأهل الأثر الأكبر فيها، لكنَّ هذا لا يُلغي حقيقة أنَّ هذه المسارات التاريخية لم تكن من خلال صناعة البطولة الفرديَّة لكنَّها كانت من خلال وعي جمعي رافق هذه البطولة الفذَّة الآسرة، والقرآن في مجال مدحه لطائفة الإيمان إنَّما يُقدِّم التصاق هذه الطائفة بالرجل المقدَّم الآسر والذي يحمل صفة الفرادة، سواء كان نبيّاً أو تابعاً لنَّبيٍّ، كذلك هو نفس المقياس مع الكُفر المُقابل حيث يكون الفرد عنواناً له ولجماعته مع وجود البيئة الملائمة له والحاضنة لنوازعه في إرادة الشر، فالفردانية مطلب قرآني حين ينفصل المؤمن عن جماعة الباطل كانفصال إبراهيم عليه السلام عن قومه، وانفصال مؤمن آل فرعون عن أهله، وانفصال أهل الكهف عن ديانة بلدتهم، وهذه الفردانية تكون ممدوحة في هذا الاتجاه، لكن لا يتحقق أثرها في إيقاع التغيير التاريخي إلاَّ بوجود البيئة الحاضنة لها وإلاَّ فإنّها تذهب في طبقة الشهداء كأهل الأخدود.

ورفع الذِكر إنَّما يحصل بأحد الأمرين إمّا بأن تذهب في طبقة الشهداء فيحصل لها الذكر الأُخروي كما قال الله تعالى عن مؤمن آل ياسين: ﴿قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ قَالَ

---

[1] ذكره السيوطي في «جامع المسانيد والمراسيل»: ٥/٢٨٨/ح ١٤٩٠٠، ٥/٢٩٢/ح١٤٩١٩. وقال أخرجه الْحكيم وأبو نعيم عن ابن عمروٍ رضي الله عنه. والمُراد بالسابق الداعي إلى الله المبعوث على رأس كل قرنٍ للتجديد.

يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [يس: ٢٦ـ٢٧]، وإمَّا أن يتحقق له الأتّباع والبيّنة التي تحقق أثر دعوته وجهاده فيسير أتباعه وتلاميذه بذكره في الأرض، وإنَّ من مميزات هذه الأُمَّة أن لا يموت فيها أهل الطبقتين، بل يحصل لكلِّ واحدٍ مِن رفع الذكر حتى لو لم يحصل له التغيير الآني لدعوته وجهاده، إذ يبقى اسمه في ذاكرة الأُمَّة ووِجدانها حتى ذهاب آخرها قبل يوم القيامة، بل قد تكمن آثار كلماته زمناً ثم يحييها الله في طبقةٍ أُخرى ليست مُلاصقة له في الزمن أو المكان، ومن قرأ كُتب الطبقات والعلماء والنبلاء رأى هذا جليّاً، والأُمّة اليوم تعيش على ذكر ومقام وموقف رجال مرّوا على درب حياة هذه الأُمّة، وشبابها يستعيدون كلماتهم ومواقفهم كأنَّهم يُشاهدونها، وما ذلك إلاَّ لرفع ذِكرهم من الله تعالى والشأن في ذلك هو قوله ﷺ: «إِذَا أَحَبَّ اللهُ عَبْدًا نَادَى جِبْرِيلَ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ فُلانًا، فَأَحِبَّهُ. فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ، فَيُنَادِي جِبْرِيلُ فِي أَهْلِ السَّمَاءِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ فُلانَاً، فَأَحِبُّوهُ. فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي أَهْلِ الأَرْضِ»[1]. وقوله ﷺ: «ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي أَهْلِ الأَرْضِ» أي بين من هم على شاكلة أهل السماء من الطاعة والعبادة، لا أن يُوضع له القبول في كلِّ القلوب حتى العاصية الكافرة منها، فإنَّ الأنبياء عليهم السلام لم يحصل لهم هذا، بل بغض هذه القلوب لهؤلاء هو دليل صلاحها كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا شَيَٰطِينَ ٱلۡإِنسِ وَٱلۡجِنِّ﴾ [الأنعام: ١١٢]، وهذا يدلك على ما تقدَّم بأنَّ وجود البيئة الإيمانيّة المُوافقة لأهل الفرادة والصلاح والتميّز هي التي تحقق المنعطفات التاريخيّة في هذه الأُمَّة، وغِيابها يعني أن يمر هذا المرء بينهم وهم

[1] «صحيح البخاري»: ٣/١١٧٥/ح٣١٣٩، ٥/٢٢٤٦/ح٦٠٤٠. طرفاه ٣٢٠٩، ٧٤٨٥، ٦/٢٧٢١/ح٧٤٨٥. طرفه ٦٠٤٠. «صحيح مسلم»: ١٦/١٥٧/ح٦٦٥٦.

يصرخون فيه كما كانت تصرخ قريش برسول الله ﷺ: «ساحر، وكاهن، ومجنون»[1].

وهذا المعنى من دخول أهل العلم الصالحين العاملين الآمرين بالمعروف والناهين عن الُمنكر في سلسلة الأئمة المتبوعين، والقادة لأهل السلوك والعبادة والتغيير يجعلكَ تفهم لِمَ أوجبَ الله على هؤلاء من القول والاجتهاد في دين الله تعالى، وأنَّ القول بأنَّ كلام السابقين وعلومهم كافية قولٌ غير صحيح، لأنَّ مقصد هذا القول هو منع تحقق الإتّباع على هذا المعنى الذي تقدّم، ولذلك فالواجب على أهل كلِّ طبقةٍ في هذه الأُمَّة أن يكون فيها العلماء الذين يتكلمون ويكتبون بكلامهم وكُتبهم تفسيراً وشرحاً وإفتاءً في النوازل ليحصل لهمُ الإمامة لأهل عصرهم وهذا هو واقع هذه الأُمَّة وقَدرها بفضل الله تعالى، مع إقرار مجموع هذه الأُمَّة الُمهتدية أنَّ المتأخر لا يبلغ شأن الُمتقدم، والأمر في ذلك ما قاله السابقون ومنهم أبو عمر بن العلاء البصري وهو المتوفي سنة ١٥٤ للهجرة، وهو أحد القُرّاء السبعة الُمتواترة، وأعلم أهل عصره بالعربية «ما نحن فيمن مضى إلا كبقل في أصول نخل طوال»، لكن هذا لا يمنع من يعرف علماء العصر حاجة الأمّة لهم فيكتبون لهم ناصحين ومرشدين، وهم اليوم أهل عصر وفيه يُقال: «المعاصرة حرمان» حيث يَقلّ معرفة قيمة الرجل في زمانه، لكن قِيام العالِم بالحقِّ قولاً وعملاً سيجعله مما قال فيه أهل العلم: «ما زال يقرأ في التاريخ معتبراً حتى رأيته في التاريخ مكتوباً»

وهكذا فإنَّ نبيَّنا ﷺ قرأ سيرة إخوانه وهو أعظم منهم، وقام على غَرَزهم وطريقتهم ثم حصل له من الذِكر أكثر من ذِكرهم، وكذلك لم يكنْ الصَّحابة يرون أنَّ لهم شأناً مع الكتاب والحديث ثم صارت سيرتهم تُتلى مع سيرة الرسول ﷺ، وأقوالهم يحرص عليها وتجمع، وهكذا كان من أمر التابعين إلى من

[1] «معرفة الصحابة» لأبي نُعيم الأصبهاني: ٦٧/٣.

بعدهم، ولا يأتي زمانٌ إلا وتزداد سلسلة الإيمان والعبادة والعِلم والجهاد والأمر بالمعروف والنهي عنِ المنكر حتى يومنا هذا، وفي كلِّ يومٍ تزداد آيات القرآن عملاً بهؤلاء الذين رفع الله ذِكرهم، وحصل لهم نصيبٌ من ميراث الرسول ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤﴾ [الشرح: ٤].

والوارثون لهذا المقام النَّبوي طبقات وأعلاهم طبقة همُ العلماء المجاهدون، وهؤلاء هم الوُرَّاث الكاملون، حيث حصل لهم أعظم الفضائل وهو العلم النافع والعمل الصالح، بل وأعلى الأعمال الصالحة التي يتسابق فيها أهل الفضل بعد الأركان، والجمع بين هذين المقامين في العصور المتأخرة صعب المنال، لأنَّ العلم يحتاج إلى وقتٍ لتحصيله، وكذلك الجهاد حتى يُصبح الرجل إماماً فيه، ولذلك قد يغلب على عالِمٍ صفة العلم مع المُشاركة في أعمال الإرادة والجهاد، وقد يغلبُ على آخرٍ صفة الإرادة والجهاد مع مُشاركةٍ في العِلْمِ، والعاقل هو من يحقق فضيلة تحصيل الأمرين، حيث لا يفوته درجةٌ من هذين المقامين العظيمين؛ العلم والجهاد، ولذلك واجب الحذر من وضع هذين الأمرين في مقام المُقابلة والضديّة كما هو صنيع الكثيرين اليوم، إذ نرى بعض أهل العلم يعيبون على أهل الجهاد قِلَّة عِلمهم، كما نرى تثريباً من بعض أهل الجهاد على أهل العِلم عدم مُشاركتهم، مع أنَّ التغيير في الأُمَّة لن يكون إلاَّ باجتماع هاتين الطائفتين في الرجل الواحد أو السبيل الواحد لأهل المقامين.

ومقام «رفع الذكر» لأهل العِلم في تاريخنا إنّما حصل لأقوامٍ قد هيأ الله لهم من الأقدار ما جعل لهم من الأتباع أكثر من غيرهم، والقاعدة القرآنية في هذا المقام مع هؤلاء العلماء الصالحين هي قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الرعد: ١٧]، فهؤلاء حصل لهم الاعتناء بأقوالهم واجتهاداتهم لِما علم الله من سابقتهم في هذا الأمر، ولِما في هذه الاجتهادات من تسديد، فصار المرء من بعدهم لا يكون فقيهاً حتى يعرف أقوالهم واختلافاتهم كما قالوا: «لا يكون المرء

فقيهاً حتى يعرف اختلاف العلماء»، وقد كانت هذه الاجتهادات سبباً لتدوين الكثير من السنن، فنشاط الإمام أبي جعفر الطحاوي الحنفي رحمه الله تعالى في تصنيف كُتبه إنّما هو من باب اعتنائه بالمذهب الحنفي، وكذلك صنع الإمام البيهقي الشافعي في كُتبه المُتعددة الحديثة نُصرةً واعتناءً وذبّاً وشرحاً لمذهب الشافعي، وهو عينه فِعْل الإمام أبي عمرو بن عبد البر في نُصرة مذهب مالك، فكانت اجتهادات هؤلاء العلماء سبباً لخير هذه الأُمَّة من هذا الباب، ثم في الطور الذي تلا ذلك، وهو تصنيف كتب الخلاف في المذهب الواحد أو المذاهب المتعددة كالمجموع للنووي والمغني لابن قُدامة، فهذا الشأن من «رفع الذكر» لهؤلاء في هذا الباب إنما هو إرادة ربَّانيَّة لأمرٍ محبوبٍ عنده في هؤلاء، والذين صار الانتساب إليهم في بعض الظروف والأزمان سبباً لحفظ الدِّين أمام البدعة والزندقة، كما كان الانتساب للمذهب المالكي في المغرب الإسلامي زمن العُبيديين علامة مفارقة مذهب العُبيديين الضال، وكما صار الانتساب للمذهب الحنفي في شبه القارة الهندية سبباً لحفظ الدِّين هناك، وكما صار الانتساب للشافعي في مصر يُقابل الانتساب للإسماعيليين العُبيديين بعد قضاء صلاح الدين عليهم فيها، فالانتساب لهذه المذاهب ليس كما يُصوّره بعض الناس اليوم أنّه علامة فُرقة عنِ الحقِّ والسنَّة، وكون وقوع النزاع المذموم بين جهلة ومُقلدي هذه المذاهب من الذين يزعمون العودة للأمر الأول هو أكثر مما سمعناه مما وقع من جهلة ومُقلدي هذه المذاهب قديماً، مع أنَّ هؤلاء الزاعمين اليوم إنّما هم مُقلّدة جُدد، وأصحاب مذاهب جديدة، لكن هؤلاء يتسترون باسم السنَّة وفِقهها لدفع هذه الحقيقة، ولم يعدْ الأمر إلاَّ خروج المرء من مذهبٍ إلى مذهبٍ لا غير، ولا تغرّكَ الأسماء ولا الألقاب.

والقصد البيان أنَّ زعم بعض الناس أنَّ المذاهب المشهورة لأئمة الفقه كالحنفية والمالكية والشافعية ليس فيها زيادة فضل عنِ المجتهدين من غيرهم ممن لهم مشاركة في الفقه هو زعمٌ مردودٌ، يرده ما تقدم وغير ذلك من الأسباب.

واليوم في محنَّة الإسلام مع خُصومه من أهل التحلل مِن الفقهاء الجُدد الذين يريدون إلغاء الشريعة تحت باب التجديد والاجتهاد إنّما يُرد عليهم بأقوال أئمة هذه المذاهب المَرْضِية التي جعل الله لها القبول في الأرض، حتى مِن قِبل هؤلاء الذين يريدون إيجاد مذاهب جديدة تحت باب إحياء السنَّة، فإنَّ أهل الدِّين من هؤلاء لا يجدون بُدّاً من إيقاف ضَلال هؤلاء المُتحللين بأقوال أصحاب هذه المذاهب المَرْضِية المشهورة، فعلى الذين يحاولون وضع اتباع هذه المذاهب مُقابل اتباع السنَّة أن يُدركوا خطأ فِعْلِهِمْ شرعاً وقَدراً، لأنَّ دعوتهم لا تعدو أنْ تَؤُولَ إلى مذهبيةٍ جديدةٍ لأقوال أئمتهم المتبوعين، ولذلك فأنا أدعو إلى إلغاء الانتساب «للسلفيّة» مُقابل الانتساب لمذاهب الأئمة المرضيين المشهورين، فإنَّ «السلفيّة» في معناها الصحيح؛ أي الانتساب للسلف الصالح تتحقق للمُنتسب لهذه المذاهب، ولا يخرج مُتّبع أقوال هؤلاء الأئمة عن «السلفيّة» الحقّة في شيءٍ، وهذه المذاهب تسع جميع طبقات النَّاس ومراتبهم في العِلم، من علماء وعوام، وأما لفظ «السلفية» خارج هذا المعنى فهو مذهبٌ جديدٌ لا ضابط له، بل هو في أصل وصفه في هذا الزمان كان عباءة واسعة دخل فيها كل من أراد «التجديد» بحقٍّ أو بباطل، ففيه كان محمد عبده المصري، كما فيه رشيد رضا وأتباع الدعوة النجدية من أتباع محمد بن عبد الوهاب، ثمَّ بظروفٍ معينةٍ، وبقوى خارج مفهوم العِلم تحقق على جهة معينةٍ دون غيرها، وصار يضيق شيئاً فشيئاً حتى صار عَلَماً على تقليد مشايخ لا يزيدون عن ثلاثة فقط، بل هو عند بعضهم تقليد شيخ واحدٍ منهم بعينه دون غيره، وهذه القضيّة وهي التخلي عن هذا الشعار «السلفيّة» تحتاج إلى شرحٍ مُطولٍ وبسطٍ أكثر، لكن يكفي أن يرى المُتابع اليوم أنَّ هذا اللفظ

لا يعني خيراً خاصّاً به ولا يُوجد في مذاهب الأئمة المتبوعين، فإنْ كان فيه خير، وهو كذلك فيه، فهو في هذه المذاهب، ولكن صار سبباً لتفريق المسلمين، كما صار النزاع عليه شديداً بين المُنتسبين إليه، حتى صار بعض الناس يضع مقيّداً له ليُدلل افتراقه عن آخرين انتسبوا إليه، كما صار أهل الجمع الواحد ينتسبون لواحدٍ من أهله دون غيره التصاقاً به التصاق أتباع المذاهب بأصحابها.

فبهذا الشعار صار الشرخ أكبر، ومن المعلوم أنَّ أئمة الهُدى والفقه والدِّين في تاريخنا لم يُصلحوا خطأ المجتهدين بالخروج من الانتساب للمذاهب، بل كانوا يردون على خطأ الآخر بأقوال الأئمة وأصول اجتهادهم مع بقاء انتسابهم للمذاهب، ولم يحصل أن صار الانتساب للمذاهب المَرْضِية عاراً إلاَّ في زماننا، وهو زمن الجهل ولا شك، ولا خير في أمر لم يهتدِ إليه السابقون ولم يعملوا به.

نعم، أنا أعلم أن هذا القول قد لا يرضاه الكثير من أهل هذا الزمان، لأنهم يظنون أنَّ من منجزات أهل هذا العصر هو رد «المذهبية» ـ زعموا ـ، وكأنَّ في قولي عودة إلى «المذهبية»، هذا مع أنّهم يعلمون أنَّ المُقلد لا مذهب له، وأنَّ العالِم الذي حاز أدوات النظر والبحث لو انتسب لهذا المذهب، لن يكون هذا الانتساب سبباً للتقليد بلا عِلْمٍ، ثم هم يعلمون أنّهم قد أدخلوا «العوام» في تقليد شيوخهم تحت ستار السنَّة والدعوة إليها، إذ ظنّوا أنَّ مجرد قول العالم المُعاصر الحُكم ثم معه الحديث الذي ينصره هو الذي يحقق الانتساب للسنَّة، وكأن السابقين من أصحاب هذه المذاهب لم يكن هذا شأنهم بل كانوا يقولون بلا حديث أو بلا آية، وهذا هو ما يُشيعونه من التزييف على أهل العلم السابقين، والغريب أن ما صارت إليه المذهبيّة المَرْضية في أطوارها البعيدة من فِعْلِ المتأخرين من المُنتسبين إليها من صُنع المتون بلا أدلة هي ما صارت إليه أقوال هؤلاء العلماء المُعاصرين في حياتهم وقبل موتهم، فإنَّ مُتون فِقههم واجتهاداتهم صارت في

حياتهم، وأمّا المُتون في مذاهب العلماء المشهورين فإنّها صارت في الأطوار المتأخرة بعد تلامذتهم وتلامذة أتباعهم.

أما التشنيع على هذه المذاهب مما قاله بعض أهلها من أقوال فإن ما يشنّع على المتأخر أكثر، هذا مع أنَّ الكثير مما يزعم المُتأخرون أنَّ المُتقدم قد أخطأ فيه، إنّما هو من جهة اجتهادهم في ظنّهم الخطأ فيه، وإلاَّ فقد يكون الحقّ هو ما قاله، وأنَّ ما صححه المتأخرون حديث استشهد به على صحّة قوله هو تصحيح غير مرضي وغير سديد.

وأُكرر القول أنَّ هذا قولٌ يحتاج إلى مزيد بسطٍ فسأقفُ هنا إذ هذا ما يتسع له المجال في هذا الموطن وعسى أن تنشط النَّفس لرد شعار السلفية مقابل اتّباع المذاهب المَرْضية المشهورة في موطن آخرٍ إن شاء الله تعالى.

ومقام «رفع الذكر» هو مطلب الصالحين والعُبّاد، ومن قول إبراهيم عليه السلام: ﴿وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٖ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ٨٤﴾ [الشعراء: ٨٤]. وقد يشكل هذا على بعض الناس حين يظن تعارض هذا الطلب مع مقام «الخمول والتواضع»، وهو مقام مرغوب في الشرع، حيث يسعى أصحابه للهروب من طلب الذكر، لوضعهم هذا في مقام الإخلاص والهروب من الرياء، والحقّ أنّه لا تعارض بين الأمرين، فأن يسعى المرء للدخول في الصالحين، وأن يدعو له النَّاس دعاءهم للعلماء والشهداء ليس هو من الرياء، لأنَّ الرياء أنْ يعملَ العملَ وهو يبغي رِضاهم، ويسعى إلى طلب السمعة والصيت دون نظرٍ إلى الآخرة، لكن مَن طلبَ الآخرة بعمله، ثم هو بطلبه هذا يسعى أن يدخل في زُمرة الصالحين والعلماء الذين تهتدي الأُمَّة بهم، وتدعو لهم وتترحم عليهم فليس هذا من التسميع والرياء في شيءٍ، ولذلك فإنَّ هذا المرء لو عاداه النَّاس وسبُّوه وذمّوه بما معه مِن الحقِّ لم يكن ليترك عمله هذا لِبُغضهم له، وأمّا الآخر فهو إنْ خلا عنِ النَّاس ترك ما يعمله من الحقِّ، ولو أعرضَ عنه النَّاس لَتصدى أمامهم بما يرغبون

به لِصرف وجوههم إليه، ويشهد لهذا أنَّ العلماء الصادقين قد ابتلوا بالمُعاصرين في أزمانهم، ووجدوا إيذاءً منهم لقولهمُ الحقّ فلم يردعهم هذا عنِ التمسّك بالحقِّ والدعوة إليه، وبتمسكهم هذا عَلِمَ النَّاس منهم صِدق مقاصدهم، وأنّهم لا يبتغون رضى النَّاس، بل طلبهم رضى الله تعالى فأحبوهم وجعلوهم أئمة.

ومما يدلّ طلب علمائنا في الكثير من أعمالهم الدخول في زُمرة العلماء أنَّ تأليفات العلماء تكون على ضربين؛ **أحدهما**: الإفتاء والكتابة في النوازل وضرورات الحال والحياة، **والآخر**: الكتابة من أجل الدخول في زُمرة العلماء، وهناك ضروب أُخرى تابعة كالتمرين والتدريب، فهذا الضرب الثاني هو الأكثر الذي نراه مِن كتب أهل العلم، وأمّا الضرب الأول وإن كان كثيراً إلاَّ أنه أقل من الآخر، وقد بارك الله تعالى في هذه الكتب والتأليفات وجعلها أسباب هداية ورُشد لأهل عصرهم ومن بعدهم، والنَّاس إنّما هم عالة على موائد هؤلاء في هذا الصنف في التفريعات والإفتاء في النوازل، بل وقد صارت هذه التأليفات هي دليل علم صاحبها، وشهادة له في الدخول في طبقات أهل العلم المشهود لهم، ثمَّ إنَّ مقياس العِلم عند المتأخرين هي كثرة التصنيفات، مع أنَّ هذا لم يكن من مقياس السابقين رحمهم الله تعالى بل كان مقياسهم الطلب والرواية والفهم، ولهذا فلكلِّ زمانٍ مقياسه وأدواته.

ومن فقه مقام «رفع الذكر» أن يكون المهتدون من أهل القرآن ألسنة الحقِّ، وذلك بأن يلهجوا بذكر أصحاب هذا المقام من العلماء والدُّعاة والآمرين بالمعروف والناهين عنِ المنكر والمجاهدين في سبيل الله تعالى، فإنَّ هذا مِن الحقِّ الذي يقيمه في ألسنة مَن يحبهم، فيرفعون مَن أمرَ الله برفعه، وخذلان المسلمين لأهل الحقِّ وأصحاب هذا المقام هو خُذلانٌ للدِّين، لأنَّ الدِّين إنّما تكون رِفعته في الخَلق برفعة أهله، ويكون صفاؤه بصفاءِ أهله، فيجب ذكر محاسن أصحاب هذا المقام والإغضاء عن زلاّتهم، لا كما يقع اليوم، فإنَّ أهل السنَّة اليوم لو

جمعت ما يُقال بينهم عنهم لما احتجتَ إلى أعدائهم لإسقاطهم وإذهاب مقاماتهم، فهم مشغولون ببعضهم أشدّ من شُغل أعدائهم به، وبعض من يمدح إنّما يجعل مدحه في غيره سبيلاً لمدح نفسه وإلاَّ فهو ساكتٌ أو طاعنٌ، وهذا بخلاف ما نراه من أهل الزندقة والبدع في رفع مقامات رجالهم حيث يطلقون عليهم الألقاب والأوصاف، مع أنَّ أهل السنَّة أولى بذلك في ذِكر رجالهم، لكنّه داء الحسد الذي دبَّ في القلوب إلاَّ من رحم الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦﴾ [الشرح: ٥-٦].

بعد أنْ ذكر الله منَّه على رسوله ﷺ، وما أعطاه وأجزل عليه، وهي منن المقدمات لعُدّة السفر إلى الله تعالى بالدعوة إليه وإمامة النَّاس وإحقاقِ الحقِّ وتحقيق نصر الدين، وقد تبيّن ما هو من أمور باطنة كشرح الصدر وإنارة القلب ورفع الوزر والثقل، ومنها ما هو ظاهرٌ في الخَلق، وهو سعادته في الوجود بجعله من الدِّين؛ اسماً وسلوكاً وحالاً ومقالاً، وهي مقدمات تُوجب وضعها في موضع المقام الإنساني الذي تعيشه أقدار الإنسان، فليس هو إلاَّ كذلك، تمر عليه الحياة في قبض الله وبسطه، وتجري عليه معاني الحياة بالضر والنفع، والعطاء والمنع، فالنعم الإلهيّة للإنسان المؤمن في هذه الحياة لا تلغي إنسانيته، ولا تلغي المحنة التي قالها الله تعالى لآدم عليه السلام: ﴿إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ۝١١٧﴾ [طه: ١١٧]، فالحياة الدنيا هذه سمتها «فَتَشْقَىٰٓ» وكما قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ۝٤﴾ [البلد: ٤]، ولذلك فلا راحة للمؤمن إلاَّ بلقاء ربِّه، لكنَّ هذه الدنيا فيها هذه القاعدة الربَّانيَّة التي يعيشها النَّاس ولا يحسون بها، ويرونها تتكرر في كلِّ طورٍ وزمنٍ، وفي كلِّ شخصٍ وجماعةٍ ألا وهي هذه الآية العظيمة: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦﴾.

والعُسر ضيق، وفراغ الإرادة عن أدواتها أو وجود موانعها، حيث يعيش الإنسان يوماً أو زمناً بلا انشراح نفس لضيق يلحق بها، سواء كان سببه نفسي أو

مادي، أو تعيش بلاءً بغياب المحيط المُلائم لنعم الله عليك من العلم والهدى، أو يسرق منك حقّ أنعم الله به عليك، فهي عسر تتعدد صوره، ثم يؤول إلى معنى واحد، وهو الضيق على النفس وقد يشترك فيه البدن والأهل.

وإذا كان البسط بالانشراح ورفع الوزر والأثقال فيحصل التخفف والراحة، وكلها تفيد الاتساع والفُسحة والانطلاق، فإنَّ ما يُقابل ذلك هو العسر، وهو الذي يُفيد الضيق والعوائق وحبس الحال والنفس، ومجيء هذا العسر بعد تلك المقدمات من المِنن دلّ ابتداءً على أنّها عوارض لا أصل، وأنّها طوارئ على النهج والشرعة، ومجيؤها لا يلغي الأصل، بل هي لتحقيق معنى النعم، لأنَّ النعم لا تعرف حقائقها إلاَّ بأضدادها، ولا يعيش المرء بها على التحقيق حتى تأتيه بعد غياب وفُقدان.

وإذا كانت المقدمات من المِنن خاصّة لرسول الله ﷺ ويسري بعض معانيها في أتباعه وهي ليست لغيرهم، بل هي قاصرة عليهم، فإنَّ قاعدة القبض والبسط والمنع والعطاء عامّة للبشر جميعاً، ولذلك جاءت على هذه الصيغة من العموم ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦﴾.

ولمّا كان «التأسيس أولى من التأكيد» علم أن قوله: ﴿إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦﴾ ليس هو عين قوله: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥﴾ بل فيها معنى زائد وإشارة لحقّ آخرٍ ينبغي البحث عنه، وأهل العلم لهم قول مشهور في هذا، وهو أنَّ العسر في الآيتين واحدٌ، لأنه عسر معرف ولذلك فهم يقولون: لا يغلب عسرٌ واحدٌ يُسريْنِ اثنين، وهو فقهٌ متقدّمٌ من الأوائل رُوي عن التابعي الكبير الحسن البصري رحمه الله تعالى.

أما لو بحث باحثٌ عن اليُسرين ما هما مع العسر الواحد لَوجد أجوبة متعددة؛ أعلاها قُرباً من واقع كلِّ عسر أنَّ كلَّ عسرٍ يكون معه عند حلوله يسر يُصاحبه، فإنْ ذهب هذا العسر وزال استحق هذا الزوال أن يُسمى يسراً خاصاً به.

ولذلك فما مِن عُسْرٍ في الوجود يقع على إنسانٍ إلاَّ وهو عُسر مخفف بيسر يُصاحبه، ومن فقه هذا الأمر أنَّ من شُكْرِ الله لما يقع من البلاء أن يحمده سبحانه عليه أنه لم يكن أعظم مما هو عليه، فما من بلاء إلا وفي الوجود أكبر منه، والمؤمن لا يرى بلاءً قد عفى الله عنه فلم يقع عليه أعظم من الكفر به كما في الحديث: «وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ، كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ»[1].

فهذا من معاني اليُسر المُصاحب ابتداءً مع كلِّ عُسْرٍ، ومِن اليُسر المُصاحب للمؤمن لكلِّ عسرٍ يقع عليه هو إيمانه بالقدر وذلك في قوله تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾﴾ [الحديد: ٢٢ ـ ٢٣]، فقوله: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾ هو من اليُسر الذي يقع في القلوب عند حلول العُسر.

كذلك من معاني اليُسر المُصاحب ابتدأً مع العُسر أن يرجو المؤمن أجره عليه لقوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾﴾ [الزمر: ١٠]، ولقوله ﷺ: «عَجَباً لأَمْرِ الْمُؤْمِنِ. إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ. وَلَيْسَ ذَاكَ لأَحَدٍ إِلاَّ لِلْمُؤْمِنِ. إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ. فَكَانَ خَيْراً لَهُ. وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ، فَكَانَ خَيْراً لَهُ»[2]، وقوله ﷺ: «مَا يُصِيبُ الْمُسْلِمَ مِنْ نَصَبٍ وَلاَ وَصَبٍ وَلاَ هَمٍّ وَلاَ حُزْنٍ وَلاَ أَذىً وَلاَ غَمٍّ حَتَّى الشَّوْكَةِ يُشَاكُهَا، إِلاَّ كَفَّرَ اللهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ»[3]، فالمؤمن حين يعلم عاقبة العُسر وهو فيه يسر عليه فيقوى عليه ولا يكسره.

---

[1] «صحيح البخاري»: ١/١٤/ح١٦، ٦/٢٥٤٦/ح ٦٩٤١. أطرافه ١٦، ٢١، ٦٠٤١. «صحيح مسلم»: ٢/١٢/ح ١٢٨.

[2] «صحيح مسلم»: ١٨/١٠٠/ح٧٤٤٩.

[3] «صحيح البخاري»: ٥/٢١٣٧/ح٥٦٤١.

ومن معاني اليُسر المُصاحب ابتداءً مع العُسر أنْ يعلمَ المؤمن أنَّ هذا عُسْرٌ ذاهبٌ لا يدوم، وذلك لِما يعلم من القرآن من هذه الآية: ﴿إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦﴾، والمرء حين يعلم أنَّ ما هو فيه العسر والضيق والبلاء لا بدَّ أنَّ له زوال هان عليه هذا العُسر والبلاء، ولذلك من أشدّ ما يُعذّب به المرء هو اليأس والقنوط، ومن رحمة الله على المؤمنين أنْ جعلَ الله اليأس كُفراً كما قال سبحانه على لسان يعقوب الكريم عليه السلام: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ۝٨٧﴾ [يوسف: ٨٧]، وإنَّ من فقه هذا الأمر أنَّ طول البلاء يعني اقتراب زواله، وهذا خلاف ما يجهله الكافرون، وهو على الضدِّ من إيحاء الشيطان، فإنَّ غير المؤمن يكون في بداية البلاء في الرجاء أن يزول عنه فإنْ طال عليه البلاء ذهب هذا الرجاء وجاءه القنوط واليأس، والمؤمن على خلاف ذلك، لأنه يعلم أنَّ طول البلاء يعني زوال أيامه واقتراب الفرج، وذلك كالسائر المُسافر، فهو كلّما طوى مرحلة اقترب إلى مقصده، والمُبتلى كلما مضى يوم وهو في البلاء دلّ على اقترابه مِن الفَرج واليُسر، وهذا مما يجعل صبره يزيد، كما يجعل رجاؤه يشتدّ ويقوى، وإنّما يدفع هذا الصبر والرجاء هو الكفر بالله حيث يظن بالله الشرّ، كأنْ يكفر بوعده في حصول اليُسر بعد العُسر، أو أنْ يظن أنَّ الله قد نسيه ـ سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون، ولذلك فإنَّ اليُسر يزيد كلّما زاد البلاء على هذا المعنى، فإنَّ زيادة البلاء تدل على قُرب الفَرج، وهذا مما أشار إليه الإمام التربوي السالك ابن القيِّم في شرحه لحديث المُخلفين الثلاثة، فإنّه قال فيما معناه: «أنَّ ما وقع عليهم من البلاء في نهاية المطاف، وذلك بمنع نسائهم عنهم دلّ هذا على قُرب الفرج وحصول التوبة»، وقد كان.

فاليُسر قطرات تبدأ مع العُسر في لحظته الأُولى، فهي تجتمع حتى تُؤتي أُكلها في نهاية المطاف، فيقع اليُسر الأكبر وذلك بزوال العُسر كلِّه، فهذا هو اليُسر الآخر الذي استحقَّ الذكر لأنَّ له معنىً خاصّاً وحالاً مميَّزاً، كما أنَّ حال المُبتلى به أظهر

من غيره من معاني اليُسر الأُولى فكان أن خُصَّ بالذكر في قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦﴾.

اليُسر بعد العُسر هو مقام يعيشه المرء كلَّ يوم، كما أنَّ له محطات كبرى يتميّز فيها العُسر بكبره كما يتميّز اليُسر بعظمته، والنَّاس فيه لهم حظوظ، فمُستكثرٌ ومُقلٌ، وأعظم النَّاس بلاءً الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل، وهم أعظم ما منَّ عليهم باليُسر، ولما كان نبينا هو أعظمهم - بأبي هو وأمي - كان أعظمهم بلاءً كما كان أعظمهم يُسراً حيث قرَّ الله له عينه بالفتح والنَّصر وكثرة الأتباع والمحبّين والمُصلين عليه، ولذلك فمقام اليُسر يُعادل مقام العُسر، وهذا مِن العدل، فلا يرجو المرء يسراً على المعنى الممدوح بدون عُسْرٍ يُقابله، وإنْ تحصّل له هذا، أي يُسر بلا عُسر فهو دليل شرٍّ على صاحبه كما في الحديث: «إِذَا أَرَادَ الله بِعَبْدِهِ الْخَيْرَ عَجَّلَ لَهُ الْعُقُوبَةَ فِي الدُّنْيَا، وَإِذَا أَرَادَ بِعَبْدِهِ الشَّرَّ أَمْسَكَ عَنْهُ بِذَنْبِهِ حَتَّى يُوَافى بِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ»[١].

وهذه الآية تدلُّ على أنَّ طلب دفع العُسر مرغوب شرعي، كما أنّه مطلوب في النفوس العاقلة، فلا يحبّ البلاء إلاَّ جاهل، إلاَّ أنْ يكون في البلاء معنى من معاني الرحمة والرزق والخير، كالجهاد في سبيل الله تعالى، فإنَّ الله قال فيه: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦]. لكن تتشوف له النُّفوس المُؤمنة لما فيه من مقامات الخير لأصحابه ولمعاني الخير لدين الله والعالَم، وهذا يقرِّب معنى محبّة الصالحين للبلاء، لا لأنَّ العُسر والبلاء مرغوبٌ لذاته ولكن لمعاني خاصّة فيه، كمَن أحبّ البلاء لأنّه دليل القبول والحبّ من الله تعالى، أو أحبّه لما يأتي به من الدعاء والتوحيد والإخبات إلى الله، أو يحبّه لتحصيل الدرجات ومغفرة الذنوب، وهي معاني حاصلة في البلاء للمؤمن، وهي مقامات لا تنفي معنى

---

[١] «سنن الترمذي»: ٧/١٠٣/ح٢٤٣٨.

دعاء النَّبِيِّ ﷺ بقوله: «وأَنَا أَسْأَلُ اللهَ الْيَقِينَ وَالْعَافِيَةَ»[١]. لأنَّ العافية هي اليُسر، والمؤمن يطلبها على المعنى المُتقدّم؛ أي بعد تحصيل مقاصد الإيمان لا بدونه كما يريدها أهل الخمول والبطالة ممن يهربون من مهمّات الطريق مخافة البلاء والعُسر، وإيثاراً للعافية على حساب الدين والعرض.

ومن فقه الربط بين هذه القاعدة القَدريّة وبين المِنن الإلهيّة المقدّمة في السورة هو العلم بأنَّ اليُسر لا يكون بالمعصية، وأنَّ ما عند الله من الخير والعافية لا يكون خيراً ولا عافيةً بلا معاني الإيمان المُتقدّمة من شرح الصدر بالإيمان ووضع الوِزرِ والثقل ورفع الذكر بين أهل الإيمان، فإنْ حصلت العافية بذلك فهي ليست خيراً ولا هي عافية ممدوحة بل مكرٌ إلهيٌّ يعقبه العذاب والأخذ والاستئصال، ولذلك فإنَّ المُتعجلين بتحصيل اليُسر على حساب هذه المُقدمات الإيمانيّة هم جهلة بمعنى اليُسر الربَّاني الذي يجريه الله لعبيده فيحصل لهم الشكر لربِّهم أنْ آتاهم إيَّاه على طاعته، وهؤلاء إنْ أتاهمُ اليُسر المُتوهم، فهو يسرٌ مع ظُلمة في الصدر وضيقٍ فيه، ومزيد ذنوب وترهقهم وتتعبهم كما لا يكون لهم وراثة الحبّ في القلوب بين أهل الإيمان ، بل يحصل لهمُ الذم والتبكيت والكراهية، وهو لَعمر الله هو واقع هؤلاء الهاربين من العُسر بمعصية الله، إذ حصل لهم هذا وهو قدرهم المعلّق لهم في الدنيا.

فالتزام المؤمن بالطاعة والصبر واليقين والثبات في لحظات العُسر هو الذي يحقق اليُسر قدراً، ويحقق اجتماع النعم الإلهيّة المُتقدمة رحمةً وعطاءً، وإنْ حصلتِ المعصية رجاء اليُسر للخروج من العُسر لم يأتِ صاحبه إلا عسر أشدّ منه، وتلك ضريبة المعاصي والخذلان.

---

[١] «جامع المسانيد والمراسيل»: ١٣/١٦٦/ح٥٩٠. قَالَ ابن كثير: لِهذَا الْحَدِيث طُرُقٌ مُتَّصِلَةٌ ومنقطعَةٌ تُفِيدُ الْقَطعَ بصحَّتِهِ.

ومِن العلم القرآني والنَّبوي أنْ يعلمَ المُبتلى بالعُسر أنَّ الصبر فعلٌ، وهو صبر يأتي به صاحبه ما قدر مِن الفعل الشرعي للخروج من العسر وإلاَّ فمجرد الصبر هو فعل بذاته يتحقق به الفرج واليُسر كما قال الله عن بني إسرائيل: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ﴾ [الأعراف: ١٣٧]. وأما الصبر على الفِعل فهو كقوله ﷺ: «واعْلَمْ أَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ»[١]، فالأول صبرٌ مجردٌ بلا طاقةٍ، والثاني صبرٌ على الفِعْلِ وهو الجهاد ومحنته.

فالمُبتلى بالعُسر ليس له في الحالين إلاَّ الصبر وهو لا بدَّ حاصلٌ على اليُسر بعد ذلك أمراً قَدريّاً لازماً، وإنّه لَيعجبني قول أهل فلسطين وخاصة الأمهات لأبنائهم في سجون اليهود: «السجن لا تُغلق أبوابه»، أي لا بدَّ أن تُفتح يوماً، وهذه قاعدة في كلِّ بلاءٍ، لأنَّ البلاء فِعْلٌ، فإمّا أنْ يقعَ مِن فاعلٍ أو جائحة إلهيّة، فإنْ كانت من آخر فإنَّ الإرادات تزول وتذهب مهما طال الزمن، والقدرات يُصيبها الوهن بفعل الزمن، فهذا الفاعل لا شك ذاهبٌ أو ذاهبةٌ إرادته، وأما إنْ كانت جائحة سماويّة فإنَّ رحمة الله أوسع من أن تدوم هذه الجائحة ولا تزول، وليس هذا من سنن الأقدار، بل إنَّ آيات الأقدار تدل على التبدُّل والتغيير كالليل والنهار والحياة والموت والصحة والمرض والفقر والغنى.

والفقه بأنَّ الصبر فِعْلٌ تتحقق به الإرادات هو من الرحمة التي يختصّ بها أهل القرآن، لأنَّ النَّاس تفتنهمُ الظواهر، وهم بضعفهم الإنساني مأسورون بآثارها ونتائجها، ولا يُدركون عِظَمَ المعاني القلبيّة وأثرها على الوجود، وإنَّ أعظم ما تتحقق به الآثار إنّما هو الصبر، وهو لا يكون على معناه الصحيح إلاَّ بهذه الآية واليقين عليها ﴿ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦ ﴾. لأنّه يُوقن في كلِّ لحظةٍ من الصبر يعني توهيناً للعُسر وإذهاباً لقوّته واقتراباً لزواله.

---

[١] «المُستدرك على الصحيحين»: ٣/٦٢٤/ح٦٣٥٥.

ووقوع العُسر في الإنسان قَدَرٌ لازمٌ له حتى للأنبياء كما قال هرقل لما سمع من أبي سفيان حال القتال بينهم وبين رسول الله ﷺ: «يُدال علينا المرَّةَ ونُدال عليهِ الأُخرى»، فإنه قال: «..وكذلكَ الرُّسُلُ تُبتَلى وتكونُ لها العاقبة»[1]، وهو من قوله تعالى: ﴿فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ [التوبة: ١١١]. ولكم من شأن صاحب البلاء في أمر أن يقع به الوهم أنّه المُبتلى فقط دون الخَلق، ولو نظر في أحوال النَّاس لَعلم أنَّ لكلِّ إنسان نصيبه من البلاء، فمنهم من يُبتلى في ماله وولده أو بدنه، وأعظم البلاء هو أن يُصاب المرء في دينه فهي الخسارة الكُبرى، ومعرفة المرء بهذا القدر الكوني اللازم للإنسان يُهَوِّن عليه ما هو فيه، كما يمنعه من الشماتة بالمُبتلين لأنّه إن كان هذا يومهم فإنَّ له يوماً آتيه ولن يخطئه، ولذلك مِن الحقّ الوقوع في الاغترار وعدم الاستعداد للبلاء والعُسر، كما أنّه من الحُمق تمني ترف المُترفين وغفلتهم عن العواقب.

وتقلّب الإنسان تُوجب عليه العمل بطاعة الله في كلِّ حالٍ ففي النعمة الشكر، وفي العُسر الصبر والرجاء، وهكذا يكون كلّ أمره له خير، وأعظم ما يعبد المرءُ ربَّه في زمن العُسر هو الصبر واليقين، وعُدتهما التوكل على الله تعالى، وبهذا تقضى الحاجات كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣]. ولكن لِيتذكر في توكله أنَّ التوكل دواءٌ وهو يُؤتي ثماره في وقته المُقدّر له، ولذلك قال الله عقبها: ﴿إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ۝٣﴾ [الطلاق: ٣]، وهذا شأنُ كل سبب يحصل به أثره في وقته الذي قدّره، كما كان توكل يعقوب عليه السلام وهو القائل: ﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾ [يوسف: ٨٣]، والقائل: ﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٦]، فإنَّ أمرَ صبره امتدّ إلى وقت علمه و قدّره الله، كما قال سبحانه: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ۝٣٨﴾ [الرعد: ٣٨]. فلا يظن ظانٌّ أنه اليُسر كلّه

---

[1] «صحيح البخاري»: ٣/١٠٧٥/ح٢٨٧٤.

يقع مع العُسر ابتداءً، ولكن يقع معه مقدار ثم يزداد حتى يصير إلى نهايته التي قدّرها الله، ولذلك فبين قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۞﴾ زمن الصبر واليقين وعُدّتهما التوكل على الله، ثم إنَّ عُسره لا بدَّ زائلٌ، فإنْ زال وهو في طاعة الله فقد نجح في هذا الابتلاء، وإلاَّ فقد ذهب ما به من البلاء وجاءه البلاء في دينه كما وقع لمن أعطى الدنية في دينه رجاء اليُسر بمعصية الله تعالى، وترْك الحقِّ ومُداهنة الأعداء.

هذا وقد رأينا أناساً من العاملين في دين الله وقع بهمُ البلاء فلم يصبروا لِيروا حكمة الله تعالى في هذا البلاء فقالوا كلمة الشرِّ، وصدر منهم مواقف الضعف، ثم أن كان فتح الله في هذه البلاد أن زال العدو وذهب الشرّ فلم يحمد لهم حالهم، ولم يُذكروا برفع الذكر أنّهم نالوا ما نالوه من اليُسر بالصبر واليقين والثبات، بل فاتهم كلّ هذا الخير، وما وقع هذا إلاَّ بسبب استعجالهم لما عند الله تعالى باليُسر حيث طلبوه بالمُداهنة، والضعف وقِلَّة اليقين والثبات، بل لو صبروا لَتحقق لهمُ المُراد ولأتاهم ما سألوه وهم قيام في ميدان الحقِّ والدِّين.

ولذلك فليعلمِ الناظر لهذه الآية أنَّ لها فقهاً وأعظمها هو ما تقدم من أدائه واجبات مرحلة العُسر، وإلاَّ فقد فاته الأجر ولم يحصل له الخير، وثانيهما أنْ يعلم سُنن التحول القَدري من العُسر واليُسر، وأنه لا يقع على وجه الطفرة والفجأة، بل له سنن يجري فيه حتى يقع الكتاب الذي قدّره الله تعالى.

ومن ربطَ هذا المعنى مع قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۞﴾ وما تقدّم القول فيها من العِلم بقدر الداعي، وما سيُلاقيه ثم ما سيَجْنِيهِ عَلِمَ أنَّ اليُسر له سُنّته لأنّه قدرٌ من أقدار الله تعالى لا يقع إلاَّ بسبب، ولا يأتي إلاَّ في زمانه المكتوب له.

ومما يُقوي اليقين على هذه الآية ـ وهي حقّ لأنّها كلمة الله ـ النظر إلى قصص العِبرة في ذلك، ومن ذلك ما كتب تحت عنوان «الفرج بعد الشدَّة» فقد ذكر بعض الأخيار التربويين من علماء الإسلام المُعاصرين أنّه قرأ كتاب التنوخي «الفرج بعد

الشدَّة» أكثر من سبعين مرّة، وما كان في هذا المعنى كالكُتب التي كتبها أصحاب التجربة في البلاء، وأنا أنصح إخواني بقراءة قصة «السجينة» لمليكة أُوفقير المغربيَّة، وهي وإنْ كانت لم تهتدِ[١] بتجربتها الشاقَّة هذه، ولم تُدرك حِكمة الله تعالى، كما أنَّ البلاء لم يهدِها إلى أقوم أمرها، لكنّ قصتها هي من مخرج هذا الباب، وهو حصول الفرج بعد الشدّة، واليُسر بعد العُسر، وكذلك أن يتفكر في قصص المُعاصرين له، حيث سيرى الكثير من العِبر، فالنَّاس قد رأوا من مكث أكثر من ثلاثين سنة في السجن والقيد، ثم صار إلى الفرج، كما صار عدوه إلى مكانه، وهي أحداث كثيرة يكتب فيها المجلدات.

وأمّا أعظم ما يعتبر به في هذا الأمر فهي قصة يوسف عليه السلام في القرآن، وهي ككلِّ القرآن لا تخلق عن كثرة الردِّ ولا تنقضي عجائبها، وهي سلوى المُبتلين بالعُسر، يرددون كلماتها ديناً وعبادةً، ويتدبرون بأحداثها عِبرةً وموعظةً.

قد ذكرت لك كتاب «السجينة» اختصاصاً بعد ذكر الكتاب الجامع «الفرج بعد الشدّة» للتنوخي، لأمور أذكر لك ما تيسر:-

- فهو كتاب لتجربة مُعاصرة مُؤلمة، إذ يتحدث عن قصة عائلة أُوفقير، وهو الجنرال المُتهم بانقلاب ضدَّ ملك المغرب الحسن الثاني، وقد قُتل حين فشلت المحاولة، ولم يكتفِ الملك بقتله ولكن انتقم من كلِّ عائلته، ولم يكن فيها بالغاً يومذاك إلاَّ زوجة أُوفقير وابنته الكُبرى، والبقية أطفال كان منهم الرضيع، ومع ذلك فإنّه انتقم منهم شرَّ انتقام، ولا يقع هذا الفعل إلاَّ من مجرمٍ لا يعرف قلبه الرحمة قط، ولم يكنِ الحال مجرد حبس وقيد، ولكن كان عذاباً يمارس على نساء وأطفال ، وهذا يدلك إن تفكّرتَ على مقدار إجرام وظُلم حُكام وطواغيت هذا الزمان، وأنَّ المادحين لهم إمّا منافقون كذابون أو جهلة أغبياء، فما وقع

[١] بل إنها ـ والعياذ بالله ـ تنصرت وتزوجت من رجل فرنسي نصراني ابن مُنصرة، وهي تعيش الآن بأمريكا.

لعائلة أُوفْقِير هو نموذج لإجرام هؤلاء مع شعوبهم حتى لو كانوا أطفالاً أبرياء أو نساءً ضِعافاً.

- ثم إني مع كثرة قراءتي لمثل هذه التجارب، وهي عديدة لرجال وقع عليهم البلاء ثم فرِّج عنهم، أو لنساء كذلك إلاَّ أنَّ مسألة الإجرام والظلم ضدَّ الأطفال على هذا الوجه من التعذيب والقسوة تكاد هذه القصة تنفرد به.
- ثم لِتعلم أنَّ تجارب النَّاس في هذا الأمر على اختلاف أديانهم نافعة للعِبرة والعِظة، فكل قراءة تقوم بها يمكن لك أن تجعلها بوعي القراءة العالمة الجدليّة قراءة دينيّة تحقق لك الهداية والفهم على الله وعلى رسوله ﷺ، كما تحقق لك اليقين بالله تعالى، فلا تلتفت إلى الدعوات القاصرة في وعيها حين تمنعك من القراءات المُتعددة الكثيرة، وهذه قضيّة مهمّة من قضايا الحياة لو عقلها أهل الإسلام وشبابه.
- ثم إنَّ هذا الكتاب فيه منافع أُخرى حيث يكشف لك فساد حياة المُترفين من الملأ الحاكم، فهي تكشف حياة الحسن الثاني من داخل قصره، وبذلك تعرف الكثير عن هؤلاء الذين حوّلوا أُمَّة الإسلام إلى قطيع لا يجد الكثير من الحياة الكفائية من المسكن والمطعم والملبس زيادة على إفسادهم لدين النَّاس.
- ثم إنَّ فيه عبرة غياب وعي المُبتلى عن الحِكم الإلهيّة، وأنَّ المُترفين بلا تعليمٍ سابقٍ، ولا إدراكٍ شرعيٍّ إنْ وقع بهمُ البلاء لم يزدهمُ البلاء إلاَّ بُعداً عن الحقِّ، وهذا الذي وقعت فيه هذه العائلة، حيث لم يتحقق لها نعمة الهداية بهذا البلاء.
- هذا على ما فيه من المعنى الذي نحن بصدده، وهو اليُسر بعد العُسر، حتى مع وقوع اليأس من وقوع اليُسر وقُدومه، وهو اليأس الذي يدفع بعضهم لقتل النفس، أو التذلل والخضوع.

أما أشدّ ما قرأت للرجال من البلاء الذي وقع بعده اليُسر الإلهي فهو كتاب «شاهد ومشهود»، وهي قصة الشاب المسلم الذي سامه النصيريون ـ ويُقال لهم تخفيفاً العلويون، وهو اسم خطأ ـ في سوريا سوء العذاب، إذ يكشف كاتبه فيه ما كان يُلاقي أهل الإسلام وشبابه وشيوخه من العذاب في سجون هؤلاء الكفرة المجرمين، وقد انتفع صاحب هذه التجربة بها خير انتفاع، فجزاه الله خيراً على كتابه هذا خير الجزاء، وفي كتابه من المعاني الكثيرة النافعة مما يستحق إفراد جزء له، وهو بحث نموذج لهذه الآية: ﴿إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦﴾ [الشرح: ٦].

وعلى كل فأنا أكتبُ من الذاكرة، ولا بدَّ أن يجد الباحث القارئ الكثير مما يستعين به على فهم هذه القاعدة الربَّانيَّة الجامعة ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦﴾ [الشرح: ٥ـ٦].

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧﴾ [الشرح: ٧].

التقلب القَدري بين العُسر واليُسر، وغلبة اليُسر على حياة النَّاس وهم لا يشعرون أمرٌ قدريٌّ يقع عليهم بحكمةٍ مِن الله كلُّها داخلٌ في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ۝٣٠﴾ [الشورى: ٣٠]، ويُواجه هذا التقلّب القَدري إدامة الطاعة فيما يُقابل كلَّ حالٍ قدريٍ، فالعبد بين حال البلاء ويُقابله الصبر، وفي حال النعمة ويُقابلها الشكر، هذا فيما يختصّ هذا الأمر، وأمر الإنسان لا يخلو من تقلّبٍ بين شُغلٍ وفراغٍ، أو بين تعبٍ وراحةٍ، وهو في كلِّ ذلك لا يخلو من عبادةٍ تُلائم هذا الحال الذي يحيَّاه ويعيشه، فهو لا يفرغ من عبادة تُناسب الحال السابق إلاَّ ويدخل في عبادةٍ تُناسب الحال اللاحق، ذلك لأنَّ أمره كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٦٢﴾ [الأنعام: ١٦٢].

وهذا الحال من العبادة المُتصلة له فَضيلتان؛ **إحداهما**: في كون الفاعل لا يخلو من أمرٍ ينفعه، والقائم بهذه الصفة همُ الرجال الأفذاذ وأصحاب الفرادة في

الوجود، وهؤلاء مَن يَصلون إلى مقاصدهم ويحققوا الآثار في الوجود، **والأخرى:** هي ما إذا كان الفِعل طاعة وعبادة فإنَّه يجتمع فيه صفة الرُشد الإنساني والهداية الدينيّة، وهذا هو الكمال المنشود، فالإرادة النشطة العاملة هي مَن طلبها الشارع بقوله ﷺ: «وَاسْتَعِنْ بِاللهِ وَلاَ تَعْجِزْ»[1]. وكون جعل هذه الإرادة في سبيل الله هي المقصودة بقوله عقب هذه الآية: ﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ۝٨﴾ [الشرح: ٨].

ومَن تفكر في حياة الحبيب المصطفى ﷺ ورأى مِقدار الإنجاز الذي حققه في الحياة يعلم أي إرادة كانت عنده، فهو الذي حقق أكبر تحولٍ إنساني في تاريخ البشريّة جمعاء، وذلك من خلال صناعته لأصحابه عِلْماً وسُلُوكاً، وهو مع ذلك مُقِيمٌ على شأن نفسه من الطاعة والعبادة، فهو الصائم القائم بشأن بيته، وهو المهاجر والمجاهد سفراً في غزوات متعددة كثيرة، وكل ذلك في ثلاث وعشرين سنة من عمره المُبارك الشريف، فهي إرادة عظيمة حققت هذه الشريعة خير تحقيق ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧﴾ [الشرح: ٧]. فلم يكن في حياته إلاَّ الحقّ في كلِّ شأنه، وهذا مما ورثه الحواريون عنه رضي الله عنهم وأرضاهم، فإنَّ ما تحقق بهم من إنجاز في الحياة، وما حققوه لأنفسهم من العِلْمِ والعمل يدل على هذا المُراد وقد بلغوا في هذا الدين إلى أقصى الأرض شرقاً وغرباً بأدوات زمانهم، ولو حاولتَ تعقّب واحدٍ منهم ومسار حركته في الأرض لَعجبتَ أن يكون هذا في زمن الجمل والخيل لا في زمن السيارات والطائرات، وهم مع ذلك في تعليمٍ وعبادةٍ وقيامٍ بشأن الحياة فلهمُ الأزواج والأولاد والتجارات، فهذا ما تصنعه الإرادة المصنوعة بهذه الآية العظيمة ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧﴾ [الشرح: ٧].

---

[1] «صحيح مسلم»: ١٦/ ١٨٤/ح٦٧٢٥.
لقد شرح الشيخ ـ حفظه الله تعالى من كل مكروه ـ هذا الحديث الشريف النَّبوي في رسالة مستقلة سماها: «**أقدم حيزوم «هداية أهل الإيمان في أنَّ «لو» تفتح عمل الشيطان»**. فارجع إليها. تجدها على منبر التوحيد والجهاد.

ولقد كان هذا هو شأن وُرَّاث هذا الدين من العلماء والدُّعاة والعُباد، لا تجد في حياتهم البطالة ولا الكسل ولا اللهو واللغو، بل هي إرادات تتواصل علماً وعملاً، وإنك لَتعجبُ كيف تحقق لهم هذا الإنجاز في أزمانهم القصيرة وأدواتهم القليلة، فرحمهم الله ورضي الله عنهم.

فهذا الإمام الشافعي رحمه الله وهو الذي عاش فقط خمساً وخمسين سنة ثمَّ هو الإمام في الفقه والحديث واللغة والشعر، وهو الذي يطوف من الشام إلى الحجاز وإلى اليمن وإلى العراق مرتين ثم يكون مرقده إلى رحمة الله تعالى في مصر.

وهذا الإمام النووي عاش فقط خمساً وأربعين سنة ثم هو يُورث هذا العِلم وهذه المُصنفات مع عبادةٍ وقيامٍ وصيامٍ، كما كان له شغلٌ طويلٌ في التعليم حتى كان له في كلِّ يوم اثني عشر درساً على مشايخه.

وهذا الأمر وهو الهمّة العالية والإرادة القويّة والحرص على الأوقات ومُتباعة الخير في كلِّ آنٍ هي سمة العلماء في تاريخنا، وقصصهم في هذا تكاد تصل الأعاجيب حتى وهم على فِراش الموت أو المرض كما ذُكر عن أبي يوسف القاضي[١] رحمه الله أنه باحث تلميذه إبراهيم بن الجراح في مسألة في الحج وهو على فِراش الموت، كما ذكر عن ابن مالك النحوي صاحب «الألفية» أنه حفظ يوم موته أبياتاً من الشعر قيل ثمانية.

وقد كانوا في سفرهم ومشيهم وأكلهم يحرصون على بعث هذه الإرادة واستغلال الأوقات، وهو أمرٌ مشهورٌ عنهم رحمهم الله تعالى.

---

[١] اسمه يعقوب بن إبراهيم ابن سعد الأنصاري الكوفي من بجيلة، صاحب أبي حنيفة رحمهما الله تعالى، توفي سنة اثنتين وثمانين ومائة عن تسع وستين سنة في خلافة هارون. انظر ترجمته في: «الطبقات الكبرى» لابن سعد، و«طبقات الحفاظ» للسيوطي: ١/ ١٢٧.

وهذا الذي وقع منهم إنّما هو من فقه القرآن الذي جعل لهم همَّ الإقامة في الأعمال دوماً، حتى في راحتهم لا تخلو إرادتهم من منفعةٍ واكتسابٍ، ولذلك كان الإمام البخاري يقول: «لا فعل إلاَّ بقصد»؛ أي بنيَّة عملٍ صالحٍ، وهكذا كان شأنهم في الحياة لا يعرفون البطالة والكسل، وبهذا تحقق بناء الحياة على أساس الإيمان، وحصل ميراث العِلْمِ والعمل الصالح، وكل ذلك في إطارٍ إنسانيٍّ، حيث يكون الإخفاق والنَّجاح، والاهتمام بالحاجات والتحسينات، وفيها القبض والبسط، والألم والفرح، فكانوا بحقٍّ خير أُمَّة أُخرجت للنَّاس.

وإنَّ من فقه هذه الآية العظيمة أن لا يترك عمل حتى يفرغ المرء منه على وجه مُتقن، فإنَّ الله قال: ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ ﴾ [الشرح: ٧]. والمرء لا يفرغ من عملٍ حتى يفرغ العمل ويُقام على أحسن وجهٍ، وأما ترك الأعمال قبل تمامها فهو من السفاهة وقِلَّة العقل، فالنهايات لها معاني الكمال والمدح، كما جعل الله هذه الأُمَّة خاتمة الأُمم حيث قصَّر الآخرون فكان التمام هو الجمال والأفضليّة والسبق، وكما أن البدايات تحتاج إلى إرادة جازمة قويّة كما سمَّى الله غزوة العُسرة ﴿ سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ ﴾ [التوبة: ١١٧] إذ كان شأنها كلّه داخلاً في الساعة الأُولى التي خطاها الصَّحابة رضوان الله عليهم فيها، فإنَّ النهايات كذلك تحتاج إلى إرادة صلبة قويّة، فإنَّ النفس يعتريها التعب والمَلل مع طُول الأمد والقيام بشأنٍ واحدٍ، ولذلك فإنَّ للنهايات إرادات خاصّة لا يستطيعها إلاَّ العقلاء وأصحاب العزائم.

وكذلك مِن فقه هذه الآية، وقد جاءت عقب قوله: ﴿ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ [الشرح: ٦]. مع علمنا أنَّ العُسر الذي عاشه رسول الله ﷺ في مكة حيث نزلت هذه السورة ما كان يُعانيه من قريش وصدِّها وإعراضها عنِ الدعوة، ثم يحصل اليُسر باستجابة مهتدٍ للحقِّ، وهذا العُسر يجده الآمرون بالمعروف والناهون عنِ المنكر حيث يقع عليهمُ البلاء ثم يقع الفرج واليُسر، وكان بعض أصحاب الهمم والإرادات الضعيفة يخافون من العود إلى ما كانوا عليه من الحقِّ، حيث يقع

العُسر عليهم موقعاً مُؤلماً، فما أن يأتي اليُسر حتى يتنفسوا الصعداء ويعقدوا الإرادة على عدم العود لما وقع عليهم من آلام العُسر، وهؤلاء لم يهتدوا بهذه الآية، فإنَّ من هداية هذه الآية أن يعودوا لنصب أنفسهم في ميدان الحقِّ وسُبله مرةً أُخرى حتى لو جاء العُسر مرةً أُخرى، فإنَّ اليُسر آتٍ، وهذا هو ما تدعو إليه هذه الآية: ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ﴿٧﴾ ﴾ [الشرح: ٧]، فهي دعوة وقيام بالحقِّ وآلام يعقبها فرح، وعسر يعقبه يسر، وشدّة يعقبها فرج، وبذلك يتحقق الوعد الإلهي لهؤلاء القائمين مرّةً بعد مرّةٍ في قوله: ﴿ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ﴿٧﴾ ﴾ [الشرح: ٦ـ٧]، فالُمهتدي ينشط للحقِّ حتى لو كان فيه العُسر، لأنه موعود باليُسر بعده ولا شك، وهذا ما فعله الغلام حين عاد للملك مرّةً بعد مرّةً وهو يحاول قتله[١]، وهي سمة النَّبي ﷺ وحياته بين قومه. وهي السمة التي وصف بها رسول الله ﷺ المؤمنين بقوله: «مَثَلُ الْمُؤْمِنِ كَالْخَامَةِ مِنَ الزَّرْعِ تُفَيِّئُهَا الرِّيحُ مَرَّةً، وَتَعْدِلُهَا مَرَّةً، وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ كَالأَرْزَةِ لاَ تَزَالُ حَتَّى يَكُونَ انْجِعَافُهَا مَرَّةً وَاحِدَةً»[٢].

فالعُسر الذي يُلاقيه المرء في أعمال الإيمان لا يجوز أن يقهر إرادته بعدم العود، بل هو عائدٌ مرّةً بعد مرّةٍ، وهذا على الضدِّ من النُّفوس البهيميّة التي ترتدع بالزجر، حيث تحاول مرّة فتتألم فتضعف همّتها عنِ العود لتذكرها آلام التجربة الأُولى أو التجارب الأُولى، وفي هذا لِيتذكر المؤمن حال الشهداء بعد الموت حين يتمنون أن يعودوا مرةً أخرى ليقتلوا ويقتلوا ويقتلوا، وكذلك حال المؤمن الصالح الذي يقتله الدجال حيث يحييه الله فيقول له الدجال: «أَتُؤْمِنُ بِي؟» فَيَقُولُ ـ الرجل الصالح ـ: «مَا ازْدَدْتُ فِيكَ إِلاَّ بَصِيرَةً»[٣]، فهؤلاء الذين يقرعون وجوه

---

[١] لقد قام الشيخ حفظه الله تعالى، وزاده علماً وعملاً، ونصراً وعلواً.. بشرح الحديث مفيداً وممتعاً في رسالة مستقلة عنون لها بـ«**دَرْكُ الهُدى في اتباع الفتى**» وهي منشورة على منبر التوحيد والجهاد، فارجع إليها لنفاستها.

[٢] «صحيح البخاري»: ٥/٢١٣٧/ح٥٦٤٢.

[٣] «صحيح مسلم»: ١٨/٥٨/ح٧٣٢٦.

النَّاس والشباب المُؤمن من مُعاودة الكَرّة بسبب آلام التجارب الأُولى هم جاهلون بهذه الآية، بل هو العود مرة بعد مرةٍ حتى يتحقق الوعد الإلهي، أما الجالسون على طُرقات الوعظ المذموم فمن حصل لهم تجربة ما، ثم انتفخت نفوسهم أنهم أصحاب الخِبرة وأنَّ طريق الحقِّ والدعوة إليه ومجابهة الباطل لا تُوصِلُ لشيءٍ فهؤلاء مذمومون بقوله تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧﴾ فالمؤمن ليس بهيمة بلا إرادة كما يحاول بعض الجهلة تطبيقَ نظريات عِلْمِ النفس التي يجرونها على الدواب لتطبّق عليه، بل هو صاحب وعد، قد يخفق مرّة بعد مرّة ولكنّه لا يكِلّ ولا يملّ حتى يتحقق وعد الله تعالى، وأما آلام الطريق، وضريبة العُسر فليست في هذه الطريق مما تبعث اليأس، بل هي وقوده وغذاؤه ومطلب أهله فيه كما قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْ﴾ [آل عمران: ١٤٦].

ومن فقه ارتباط هذين الأمرين في مقام واحد ﴿إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦﴾، وقوله: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧﴾ أنَّ العُسر واليُسر أمران قَدريان تجري الحياة بهما على الإنسان، ولا ينبغي لأحدهما إنْ وقع أن يمنع العامل من الانتصاب للأعمال، فلا حال اليُسر يدعو للخمول، ولا حال العُسر يمنع من الإقبال، لأنَّ بعض الناس يُسَوِّفُ إنْ كان في العُسر حتى يأتي اليُسر، وإن كان في اليُسر نسي وماتت همته، فهو مُفَوِّتٌ للخير في الحالين، وفِعْلُ النَّبي ﷺ وأصحابه وأهل العلم والإيمان هو العمل في كلِّ الظروف، بل إنَّ المرء لا تعرف درجته ولا قيمته إلاَّ بالعمل تحت الضغط والعُسر، فحينئذٍ تظهر مزاياه وهمّته وثقته بما معه، كما لِما رأينا من رسول الله ﷺ في غزوة حُنين، فإنه ﷺ وقف موقفاً هو في المقياس الإنساني في القمّة والذروة، حيث تراجعت الجموع ،وحصل الهرج والضعف، وبدأت كتائب الأعداء تنهالُ عليهم كالسحاب والموج، وتحت هذا الظرف من العُسر والضيق وقف يُنادي على ناقته: «أَنَا النَّبِيُّ لا كَذِب، أَنَا ابنُ عَبْدِ

المُطَّلِب»[١]. وهذا النداء ليس فيه انتسابٌ للنُّبوة فقط حيث هي ميزته التي اختصّ بها على العالمين، لكنّه ذهب ﷺ ينتسب لشرف الأصل الذي يمنعه من الانهيار حتى لو لم يكن نبيّاً فقال: «أَنَا ابنُ عَبْدِ المُطَّلِب»، بأبي هو وأمي ﷺ.

وكذلك قصته ﷺ في حادثة الإفك، فإنّه قد وقع عليه من الهموم والضيق وانثالت عليه، ومع ذلك لم يُؤثر عنه كلمة باطل، أو تصرّف غير واعٍ كما يقع على النَّاس في هذه اللحظات من الغضب والتعب والمعاناة.

ووُرَّاثه في هذا الأمر هم حواريوه وأعلاهم مرتبة في ذلك هو الصدِّيق الأكبر أبو بكر رضي الله عنه، فإنَّ ثباته وانتصابه للحقِّ في حادثة الردّة لا يقوى عليها إلاَّ هو، ويحق له ذلك وهو وارث منصب الإمامة في النَّاس من رسول الله ﷺ، وهو موقف وقف خلفه الإسلام كلّه، إذ يُعادل قول الرسول الله ﷺ في بدر: «اللَّهُمَّ! إنْ تَهْلِكْ هَـذِهِ الْعِصَابَةُ مِنْ أَهْلِ الإِسْلاَمِ لاَ تُعْبَدْ فِي الأَرْضِ»[٢]، ولولا أبو بكر الصدِّيق وموقفه لم يكن للإسلام قائمة، فرضي الله عنه وأرضاه وجزاه الله عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء.

ولهذا فإنَّ المرء لا ينهار في العُسر إن كان من أصحاب القرآن وحملة فقهه، بل هو أشدّ انتصاباً للحقِّ، وحيث يظن الظانّون أنَّ هذا زمن الانهيار فإنّه يرث مقالة رسول الله ﷺ في حُنين: «الآنَ حَمِيَ الوَطِيسُ»[٣]، ومقالة أبي بكر الصدِّيق رضي

---

[١] «صحيح البخاري»: ٣/١٠٥١/ح٢٧٩٩، ٣/١٠٥٤/ح٢٨٠٩، ٣/١٠٧١/ح٢٨٦٣، ٣/١١٠٧/ح٢٩٧٥. «صحيح مسلم»: ١٢/٩٤/ح٤٥٧٠، ١٢/٩٧/ح٤٥٧٢.

[٢] «صحيح مسلم»: ١٢/٦٨/ح٤٥٤٢.

[٣] «معجم الطبراني الكبير»: ٧/٢٩٨/ح٧١٩١. «مُسند أبي يعلى الموصلي»: ١٨/٢٧١/ح٣٦٠٩. «مسند البزار»: ٤/١٢٨/ح١٣٠١. وقال: وَهَذَا الْحَدِيثُ قَدْ رُوِيَ نَحْوُ كَلامِهِ مِنْ وُجُوهٍ ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، وَلاَ نَعْلَمُهُ يُرْوَى عَنِ الْعَبَّاسِ إِلاَّ بِهَذَا الإِسْنَادِ مِنْ حَدِيثِ كَثِيرِ بْنِ الْعَبَّاسِ، عَنْ أَبِيهِ، بِرِوَايَةِ الزُّهْرِيِّ، عَنْ كَثِيرٍ، وَلاَ نَعْلَمُ رَوَى كَثِيرُ بْنُ الْعَبَّاسِ، عَنْ أَبِيهِ إِلاَّ هَذَا الْحَدِيثَ. «مجمع الزوائد ومنبع الفوائد»: ٦/٢٦٥/ح١٠٢٦٨. وقال الهيثمي: رواه أبو يعلى والطبراني في الأوسط ورجالهما رجال الصحيح غير عمران بن دَاوَر وهو أبو العوام وثقه ابن حبان وغيره، وضعفه ابن معين وغيره.

الله عنه في الردّة: «وَالله لَوْ مَنَعُونِي عِقَالاً كَانُوا يُؤَدُّونَهُ إِلَى رَسُولِ اللهِ لَقَاتَلْتُهُمْ عَلَى مَنْعِهِ»[1]، وهذا الأمر وهو الاندفاع في لحظة البأس والعُسر مما يقوّي نفوس الناظرين، ويرجف قلوب الأعداء، ويحقق النَّصر، أو يدفع الكثير من البلاء، فهذا فقه القرآن لو عَلِمَ قومي بذلك، ولذلك فنعم قول الصَّحابي الجليل: أنس بن النضر في أُحد وقد شاع أن رسول الله ﷺ قد قُتِل فقال: «فَقُومُوا فَمُوتُوا عَلَى مَا مَاتَ عَلَيْهِ رسولُ اللهِ ﷺ»[2].

فهذه إرادات المُؤمن تنبعث في كلِّ آن، ويقوم أصحابه للحقِّ على كلِّ الأحوال من العُسر واليُسر، ولا يضرهم الحالُ أبداً، إنّما هم مِن عملٍ إلى عملٍ، أمّا المحتجّون بالظروف والأحوال فهم شرّ الخليقة وأتعس النَّاس عن بلوغ المآرب وهم مَن استعاذ منهم علي بن أبي طالب رضي الله عنه حين كان يستنفرهم في الحرِّ فيتعللون، ويستنرفهم في القرِّ فيتعللون فقال: «لقد ملأتم قلبي هماً» وهم وُرَّاث أصحابهم ممن قالوا: ﴿**لَا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ**﴾ [التوبة: ٨١]، وقالوا: ﴿**شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا**﴾ [الفتح: ١١].

فهذه الآية الجامعة: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ۝٧﴾ تقضي على كلِّ عِلَلِ الإرادات، وخاصّة التسويف وتعليق الأعذار على الظروف والأحوال، فإنَّ المرء لا يمكن أن يخلو مِن قُوّةٍ على عملٍ من الأعمال، فإنْ عجز عن عملٍ لِضُعْفِ قُدرته وآلاته فيه فعليه أن يبحث عن غيره من الأعمال الصالحة التي يقوى عليها مما تتلاءم مع قُدرته في تلك اللحظة، ولِيتذكر أن يَسير الأعمال في حال هو من عظيم الأعمال عند الله تعالى ولِيتذكر حديث النَّبي ﷺ: «كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ

---

[1] «صحيح مسلم»: ١/١٧٣/ح٩٠.
[2] «دلائل النُّبوة» للبيهقي: ٣/٢٤٥.

فِي الْمِيزَانِ، حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمنِ. سُبْحَانَ الله وَبِحَمْدِهِ. سُبْحَانَ اللهِ الْعَظِيمِ»[١]، وقوله ﷺ عن سورة «الإخلاص»: «تَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ»[٢]، فالمرء مهما فقدَ الآلات فلن يفقد مثل هذه الأعمال، حتى لو قُيِّد لسانه فله عبادة التفكر والاعتبار، وهي من أعظم العبادات كما قال تعالى: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾﴾[آل عمران: ١٩١].

فهذه آيةٌ من أعظم شعارات المؤمن مع قِلَّة كلماتها، إلاَّ أنها تستوعب الحياة وتغير الإنسان وتصنع الحياة، ويبلغ أهلها مقاصدهم كما بلغ رسول الله ﷺ وأصحابه، فصناعة الإرادة وتصويرها مهمّة قرآنيّة، لأنَّ الواجب الُملقى على هذه الأُمَّة عظيم القدر، بل هو أعظم واجبات الوجود، ولا يتحقق هذا الواجب إلاَّ برجالٍ أفذاذٍ لهم هذه المقامات العُلويّة.

واعلم أنَّ قول بعض التربويين وهو الأستاذ حسن البنا رحمه الله: «أنَّ الواجبات أكثر من الأوقات» قول غير صحيح، والأستاذ وإن أراد به الحضَّ على العمل الجماعي ومشاركة الآخرين إلاَّ أنَّ هذا القول يخالف الشرع والواقع، فإنَّ الله عزَّ وجلَّ لا يكلف العبد ما لا يستطيع، وهذه من قواعد الأصول المعلومة وهي عدم التكليف بغير المقدور، ثمّ إنَّه يخالف واقع النَّبي ﷺ وهو أعظم الأمة حملاً للواجبات وأكثرهم أداءً لها، وكذلك أصحابه من بعده، والوقت ولا شك هو أغلى ما في الوجود كما قال ابن هبيرة رحمه الله:-

والوقت أنفس ما عنيت بحفظه   وأراه أسهل ما عليك يضـــيع[٣]

---

[١] «صحيح البخاري»: ٥/٢٣٥٢/ح٦٤٠٦. طرفه ٧٥٦٣، ٦/٢٤٥٩/ح٦٦٨٢. «صحيح مسلم»: ١٧/١٧/ح٦٧٩٦.

[٢] «صحيح البخاري»: ٦/٧٩/ح١٨٣٨.

[٣] «ذيل طبقات الحنابلة» لابن رجب الحنبلي: ٣/٢١١. «شذرات الذهب» لابن عماد المقدسي الحنبلي.

إنما العِبرة إنما هي في استغلاله وعدم تضييعه، وهو من نِعم الله تعالى على الإنسان كما في الحديث: «نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، الصِّحَّةُ وَالْفَرَاغُ»[١]. فوجود الفراغ بعد الواجبات أمرٌ قدريٌّ واجبٌ، لكن إنّما يتفاضل النَّاس باستغلاله والاعتناء به.

ومِن فقه هذه الآية أن لا ينصب المرء لعملٍ جديدٍ حتى يفرغ من عمله السابق إلاَّ أن يكون في عمله الذي هو فيه ما يتسع لهذا العمل الحادث الجديد، فالله يقول: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧﴾، لأنَّ تكاثر الأعمال في الوقت الواحد قد يُفسدها جميعاً، وهذا لا يعني أنْ لا يعمل المرء في يومه إلاَّ عملاً واحداً، بل المرء قد يفرغ من مهمات عمل في لحظة مع عدم إتمامه كلّه ثم يقوم لآخر، كما هو شأن الدروس، فإنَّ الطالب ما أن يفرغ من درسه في لحظته حتى يدخل في آخرٍ، مع أنّه لم يفرغ من كلِّ هذا العلم في هذا الدرس، وإنّما هو عائدٌ لإتمامه في وقتٍ آخرٍ، ولكنَّ الآية تفيد أن ينصب المرء اهتمامه فيما هو بين يديه حتى يتمّه ثم يفرغ لغيره، وبهذا يحصل الإتقان والذي هو من الإيمان كما في الحديث، أما أن يضيع همّه وفكره في أمورٍ متعددةٍ في وقتٍ واحدٍ فهذا مما يبعد عنه الإتقان المطلوب.

قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ۝٨﴾ [الشرح: ٨].

هذا هو سرُّ التعبد وأعمال المؤمن كلّها، فإنَّ المؤمن لا يعمل عملاً إلاَّ لله، ولا يرجو به إلاَّ الدار الآخرة، ولذلك فإنَّ تقلّب الإنسان في عُسره ويُسره، وفي فراغه ونصبه لا يرجو إلاَّ ربَّه ولا يبتغي إلاَّ رضاه ولا يسعى إلاَّ لتحصيل الدار الآخرة، فهذه هي رغباته، وهي مهوى قلبه وهُجَيْرَاه[٢]، ووجود هذا الأمر في

---

[١] «صحيح البخاري»: ٥/٢٣٥٧/ح٦٤١٢.

[٢] هُجَيْرَاه: دأبه وشأنه. دأبه

أعمال المؤمن هو ما يجعل لها صفة العبادة، ويحقق العبد بها الرضى والكمال والفوز.

وسرُّ الإخلاص ورجاء الدار الآخرة هو ما يتميّز به النَّاس في الأعمال، وأصحاب هذا المقام هم مَن يتحقق بهمُ الفوز والنَّصر كما قال تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [القصص: ٨٣]، والطغيان في الأرض والإفساد إنّما يقعان لغياب هذا السر وهذا المعنى كما قال موسى عليه السلام: ﴿إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٧﴾﴾ [غافر: ٢٧]، فصلاح الحاكم والمحكوم، وصلاح العامل في شأن نفسه وشأن غيره لا يكون إلاّ بذكرى الدار الآخرة ومقصد الإخلاص.

ولقد كان من مقدمات دعوة الأنبياء لقومهم تمهيداً لقبولهم الحقّ قولهم: ﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٤٥، ١٢٧، ١٢٩، ١٦٤، ١٨٠]، وهو مقدّمة قالها جميع الأنبياء كما في سورة «الشعراء»، لأنَّ الإخلاص لله هو مَدعاة القبول، وأمّا إنْ وقع في نفس المدعو أنك تريد ماله أو دنياه فلن يقبل منك الحقّ، بل سيبدأ بمساومتك، ولذلك كان من ذكاء ملكة سبأ أنْ أرسلت بهديّة لسليمان عليه السلام لِتعلم أهو طالب دنيا أو داعي إلى الله تعالى فقالت: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [النمل: ٣٥]. فكان ردّه عليه السلام: ﴿أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [النمل: ٣٦].

وكان هذا شأن رسول الله ﷺ في أمره كلّه، إذ لم يتهمه خصومه بأنه طالب دنيا، ولا علم عنه ذلك ﷺ في كلِّ أطوار حياته، بل إنَّ الله تعالى أمره أن يخير نساءه لقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾﴾ [الأحزاب: ٢٨-٢٩].

وأمر الإخلاص وإن كان سرّاً بين العبد وربِّه إلاَّ أن له أمارات ظاهرة في حياة صاحبه، والنَّاس لا تخفى عليهم بواطن النَّاس، وأخلاق النفوس له روائح يشمّها النَّاس ويعرفونها، وبها يميّزون بين الصالح والطالح، وبين طالب دنيا ومريد للآخرة.

كما أنَّ أعمال المرء لا تبقى في الوجود إلاَّ إن كانت صالحة ونافعة، وشرط الصلاح والنفع هو الإخلاص كما قال تعالى: ﴿ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ [الرعد: ١٧]. ولذلك فمَن أراد رفع الذكر، ومَن أراد تحقيق نفعٍ للنَّاس فليُراقب أعماله، وليفتِّش نفسه أن يقع فيها طلب الدنيا أو صرف وجوه النَّاس إليه.

مجيء هذه الآية بعد بيان تقلُّب أحوال الإنسان بين عُسْرٍ ويُسْرٍ، وبين فراغٍ ونَصْبٍ يعني أن يكون كلّ عمل المرء من ذلك كلِّه لله تعالى، فإن كان في العُسر فهو لله، وإن كان في اليُسر كذلك، لا كما وصف الله العصاة بقوله: ﴿ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾ ﴾ [فصلت: ٥١]، وكقوله: ﴿ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّيٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾ ﴾ [الإسراء: ١٠٠]، فكون المؤمن لله في يُسره أن يشكره، وكونه لله في العُسر أن يصبر ويرجوه، وهكذا هو لله في كلِّ حالٍ.

ثم إنَّ مجيء هذه الآية في ختام السورة بعد ما تقدم تذكير أن العبد مصيره إلى الله، وأنَّ عاقبة كل ما يقع إنَّما هو لقاء الله تعالى كما قال يوسف عليه السلام بعد أن ذكر ما وقع له من قوله: ﴿ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِيٓ ﴾ [يوسف: ١٠٠]. ثم ما حصل له من النعيم بقوله: ﴿ ۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ﴾ [يوسف: ١٠١]. فإنَّه ختم هذا التقلُّب بقوله: ﴿ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾ ﴾ [يوسف: ١٠١]، فإنَّ تذكُّر المؤمن في تقلُّب الأحوال عليه، وتقلبه هو في الأعمال من ابتداء وانتهاء أنَّه صائر في خاتمة ذلك كلّه إلى الله يدعوه ذلك للإخلاص وطلب الأجر في الآخرة.

وحيث أنَّ الأمر كذلك فليرغب المرء إلى لقاء ربِّه كما في الحديث: «مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ أَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ»[1]، ولمَّا خُيِّر رسول الله ﷺ بين الدنيا والآخرة فإنَّه رغب إلى لقاء ربِّه وقال: «بَلِ الرَّفِيقَ الأعْلَى»[2] وقد ذكر من نفسه ﷺ بقوله: «إنَّ عَبْدًا عُرِضَتْ عَلَيْهِ الدُّنيا وزينَتُها، فاختارَ الآخِرَةَ»[3]، وهذا ليس تمني الموت المذموم، لأنَّ المذموم فيه هو تمني الموت لضرٍّ أصابه فلم يصبر عليه، وإلاَّ فتمني لقاء الله رغبة في الآخرة فليس من ذلك في شيء.

وإنَّ مما تدعو له هذه الآية هو الزهد في الدنيا، فإنَّ الرغبة إلى الله حين تقع في قلب العبد تدفعه إلى ترك الرغبة في الدنيا، وهذه الصفة هي مقام الأئمة الهداة والدين في تاريخنا، وهي حين تزول ويقع تهارش أهل العِلم والدين على الدنيا فإنَّ إمامتهم في الخَلق تزول، كما تزول هيبتهم وأثر كلامهم في الخَلق.

وأهل زماننا فيهمُ الكلام الكثير، والوعظ والتحديث والكتابة، وقد شاع العِلم بين النَّاس وكثر المُنتسبون له، لكنَّ الزهد هو ما ينقص النَّاس اليوم، والنَّاس يعرفون هذا فينا، ولذلك لا تحدث الكلمات آثارها فيهم، ولا في أنفس القائلين وهذا هو الوهن الذي قاله رسول الله ﷺ: «حُبُّ الدُّنْيَا وَكَرَاهِيَةُ المَوْتِ»[4]، فلا يغرك ما يتشدَّق به الكثيرون من تفسيرات وعِلل مصطنعة في تفسير غياب الفاعليَّة، فإنَّ العلم والكلام كثيرٌ في النَّاس، وإنَّما تنقصهم الهمم والإرادات للدار الآخرة، فالكلُّ يُعلِّق العِلل والأسباب على غيره، فالعوام

---

[1] «صحيح البخاري»: ٢٣٨٦/٥/ح٦٥٠٧، ٢٣٨٧/٥/ح٦٥٠٨. «صحيح مسلم»: ١٧/٩/ح٦٧٧١، ح٦٧٧٣، ١٧/١٠/ح٦٧٧٥، ح٦٧٧٧، ١٧/١١/ح٦٧٧٩.

[2] «المُسند»: ٣٨٩/٧/ح٢٥٩٤٧، ٢٥٩٤٨. «السنن الكبرى» للنسائي: ٢٥٩/٤/ ٧٠٣٩. «صحيح ابن حبان»: ١٦٤/٦/ح٦٥٠٣.

[3] «المُسند»: ٥١٦/٣/ح١١٦٠٨. «سنن الدارمي»: ٣٦/١/ح٧٨. «صحيح ابن حبان»: ١٥٥/٦/ح٦٤٧٩. «مصنف ابن أبي شيبة»: ٥٦٨/٨/ح٣٢٨٢٦. «المُستدرك على الصحيحين»: ٣١٤/٤/ح٧٨٢٨. قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين.

[4] «سنن أبي داود»: ٤٠٤/٤/ح٤٢٩٤. «دلائل النُّبوة» للبيهقي: ٥٣٤/٦.

يُلقونها على العلماء، والعلماء يزعمون أنَّ النَّاس في إعراضٍ عنِ الإجابة، والحقّ أنَّ النقص هو في إرادة الموت بسبب حبِّ الدنيا، وحين يذهب الخوف من ذهاب الدنيا، وحين يزول الرعب الكامن في القلوب من العُسر بسبب الحقِّ والصَّدع والعمل به، وحين تتواصل أعمال النَّهار من الدعوة والجهاد والعلم مع عمل الليل من العبادة والإخبات والاستغفار والدعاء حينها يتحقق زوال الغربة الثانية التي تعيشها أُمّتنا اليوم، إذ يرفع الله أئمة هذه الطائفة، ويحصل لهمُ النَّصر والغلبة، ويضع الله لهم القبول في الأرض، فيُقبل النَّاس عليهم ويُسلمون لهم القيادة، فتبدأ المسيرة وتتحقق الوعود، ويبدأ التاريخ في مُنعطفه الجديد.

إنَّ هذه السورة العظيمة تُبيِّن الشخصية النَّبويَّة التي صُنعت على عين الله وحصل بها التغيير، وتحقق بها الوعود الإلهيَّة، وصفات هذه الشخصية العظيمة هي التي سرت في وُرَّاثه والمجددين لهذا الدين، وبها فقط تتحقق الفاعليَّة التي تحدث التغيير وتحقق بها الوراثة والنَّصر والتمكين في زماننا، وبمقدار تحصيل المرء لخيراتها يحصل له القُرب والالتصاق بالشخصية النَّبويَّة التي أمرنا الله تعالى باتخاذها أُسوة وقُدوة ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ [الأحزاب: ٢١].

والحمد لله ربِّ العالمين

☆☆☆☆☆
☆☆☆☆
☆☆☆
☆☆
☆

قائمة المراجع

◙ «**الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان**» لأبي حاتم البُستي محمد بن حبان بن أحمد بن حِبَّان بن معاذ بن معبد التميمي. دار الفكر / بيروت. ١٩٩٦م.

◙ «**الرحيق المختوم**» لصفي الرحمن المباركفوري. طبعة دار الوفاء. ٢٠٠٧م.

◙ «**الرسالة**» للإمام المطلبي محمد إدريس الشافعي. تحقيق وشرح: أحمد محمد شاكر. طبعة مكتبة التراث/القاهرة. الطبعة الثالثة ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥م.

◙ «**السنن الكُبرى**» لأبي عبد الرحمن أحمد بن علي بن شعيب بن علي بن سنان بن بحر بن دينار النسائي. طبعة دار الكتب العلمية/بيروت ١٩٩١م.

◙ «**الطبقات الكُبرى**»، «**طبقات ابن سعد**» لمحمد بن سعد بن منيع الهاشمي البصري. طبعة دار الكتب العلمية/بيروت.

◙ «**المُستدرك على الصحيحين**» لأبي عبد الله محمد بن عبد الله بن حمدويه الضبي الطهماني النيسابوري الشهير بـ "الحاكم" ويُعرف بـ "ابن الربيع". طبعة دار الكتب العلمية/بيروت. الطبعة الأولى ١٩٩٠م.

◙ «**المُسند**» لأبي عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني الوائلي. طبعة دار إحياء التراث العربي/بيروت. الطبعة الثانية ١٩٩٣م.

◙ «**جامع المسانيد والمراسيل**»، «**جامع الأحاديث الجامع الصغير وزوائده والجامع الكبير**» لجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد ابن همام الخضيري السيوطي. طبعة دار الفكر/بيروت. ١٩٩٤م.

◙ «**جامع بيان العلم وفضله**» لأبي عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر النمري القرطبي المالكي. دار ابن الجوزية.

◙ «**دلائل النُّبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة**» لأبي بكر أحمد بن الحسين

بن علي البيهقي. طبعة دار الكتب العلمية/بيروت. الطبعة الأولى ١٩٨٨م.

▣ «**ذيل طبقات الحنابلة**» لزيد الدين عبد الرحمن بن أحمد بن عبد الرحمن بن محسن بن محمد بن أبي البركات مسعود السلاّمي البغدادي ثم الدمشقي الحنبلي الشهير بابن رجب. طبعة دار الكتب العلمية/بيروت. ١٩٩٧م.

▣ «**سُنن ابن ماجه**» لأبي عبد الله محمد بن يزيد الربعي القزويني ابن ماجه. طبعة دار إحياء التراث العربي/بيروت.

▣ «**سُنن أبي داود**» لأبي داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير الأزدي السجستاني. طبعة دار إحياء التراث العربي/بيروت.

▣ «**سُنن الترمذي**» لأبي عيسى محمد بن عيسى بن سورة بن موسى السلمي البوغي الترمذي. طبعة دار الفكر/بيروت. ١٩٩٤م.

▣ «**سُنن الدارمي**» لأبي محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل بن بهرام التميمي الدارمي. طبعة دار الكتب العلمية/بيروت. ١٩٩٦م.

▣ «**شذرات الذهب في أخبار من ذهب**» لأبي الفرج عبد الحي بن أحمد بن محمد بن العماد العكري الدمشقي الحنبلي. طبعة دار الكتب العلمية/بيروت.

▣ «**شُعب الإيمان**» لأبي بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي. طبعة دار الكتب العلمية/ بيروت. ٢٠٠٠م.

▣ «**صحيح ابن خُزيمة**» لأبي بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة السُّلمي. المكتب الإسلامي/بيروت. ١٩٩٢م.

▣ «**صحيح البخاري**» لأبي عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن الْمُغيرة البخاري. طبعة دار ابن كثير. الطبعة الخامسة ١٩٩٣م.

▣ «**صحيح مسلم**» لأبي الحسين مسلم بن الحَجَّاج بن مسلم القشَيري النيسابوري، طبعة دار الكتب العلمية/بيروت. ١٩٩٢م.

◘ «**طبقات الحُفاظ**» لجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد ابن همام الخضيري السيوطي. دار الكتب العلمية/ بيروت. ١٩٩٤م.

◘ «**مجمع الزوائد ومنبع الفوائد**» لأبي الحسن نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان الهيثمي. طبعة دار الفكر/بيروت. ١٩٩٤م.

◘ «**مُسند أبي الموصلي**» لأبي يعلى أحمد بن علي بن المثنى التميمي الموصلي. طبعة دار الكتب العلمية/بيروت. ١٩٩٨م.

◘ «**مسند البزار**»، «**البحر الزخار**» لأبي بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البصري البزار. طبعة مكتبة العلوم والحكم.

◘ «**مُسند الحارث**» لأبي الحسن نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان الهيثميالمصري القاهري. طبعة دار الفكر/بيروت.

◘ «**معجم الطبراني الكبير**»، «**المعجم الكبير**» لأبي القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي الطبراني. طبعة مطبعة الزهراء الحديثة.

◘ «**معرفة الصحابة**» لأبي نُعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق الأصبهاني. طبعة دار الكتب العلمية/بيروت. ٢٠٠٣م.